حسن جمال البلوشي

أهل البيت عليهم السلام

العصمة من الضلالة

الأساس النظري والواقع التطبيقي

حسن جمال البلوشي
أهل البيت عليهم السلام العصمة من الضلالة
دار القارئ

شبكة الفكر
alfeker.net

أهل البيت

العصمة من الضلالة

الأساس النظري والواقع التطبيقي

بسم الله الرحمن الرحيم

أهل البيت

العصمة من الضلالة

الأساس النظري والواقع التطبيقي

حسن جمال البلوشي

دار القارئ

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٤١٣٢٥٦ / ٠٣ بيروت - لبنان بريد إلكتروني: DAR_ALKARI@hotmail.com

المقدمة:

■ لو قُدِّر لأحدنا أن يطل على العالم الإسلامي بأطرافه المترامية لرأى أن فيه صوراً متنوعة. فبعض الأطراف تموت جوعاً وفقراً، وأخرى تموت ترفاً وتخمة، وفي جانب آخر تعيش بعض الأطراف على وقع حرّ النار، في حين أن أطرافاً أخرى تبيت على ريش النعام. وفي جانب ثالث يصرخ البعض غضباً في وجه الغرباء، وآخرون يشاركهم الغرباء فراشهم وأولادهم... وهنالك جوانب أخرى سيراها من قُدِّر له أن يطلّ. وليس من رأى كمن سمع.

ولكن كل هذه الصور وغيرها تؤكد حقيقة واحدة، وهي أن الأمة اليوم وضمن متوالية تاريخية أمام مفترق طرق، عليها أن تضع خيارها في المركب الصحيح. وهذه ليست المرة الأولى التي يصل فيها حال الأمة إلى هذا الوضع، بل هنالك لحظات كثير في التاريخ المعاصر كانت الأمة فيها أمام نفس مفترق الطرق، ولكنها كانت في أغلب المرات تضع خياراتها في غير المركب الصحيح، وتكرر الخطأ نفسه، إذ كانت مسألة الثقافة دائماً في المراتب المتأخرة من سلم الأولويات،

إن لم تكن غير واردة أصلاً، في حين أن فكر الإنسان هو رمزه الذي به ومن خلاله يمكنه التقدم خطوة فخطوة إلى الأمام، بقدم ثابتة وروح وثابة، وما لم نصارح أنفسنا في مسألتنا الثقافية فإننا نظل نراوح مكاننا، إن لم نرجع إلى الوراء.

الأمة كالبيت الذي لا يمكن أن يبنى على شباك العنكبوت، إذ إنّه بحاجة إلى أسس راسخة يواجه بها العواصف العاتية، فالأمة بحاجة إلى تلك الكلمة الطيبة التي تُرسي جذورها في الأرض لترى فروعها اليانعة في السماء.

وهذه الوريقات حوار صريح في أحد أجزاء همومنا الثقافية والتي تتناول موضوع «أهل البيت عليهم السلام» وموقعهم في ثقافتنا، خصوصاً في ظل الأوضاع التي نعيشها اليوم، حيث بات الكل يسأل ويراجع في كل ما في ثقافتنا بغية الوقوف على «قدم صدق». فأين يقع أهل البيت عليهم السلام كمرجعية ثقافية سلوكية في حياتنا؟ هل لازلنا بحاجة إلى الوحي الإلهي والرجال الربانيين بعد أن فجّر العلم ثورته في الحياة؟ أين تقف حدود الدين في حياتنا؟ كيف كان أهل البيت عليهم السلام عصمة لهذه الأمة؟ أليس اليوم أفضل وقت لنصارح أنفسنا في أهل البيت عليهم السلام؟

هذه الأسئلة وغيرها كانت محاور هذه الوريقات.

حسن جمال البلوشي

نقطة:

■ المدخل الطبيعي لهذه الدراسة هو تفكيك مفردات العنوان المفترض، وتحديد دلالة كل مفردة على حدة، ومن ثم إعادة تركيبها لتعطينا تصوراً كلياً عن القضية المبحوثة، بحيث يمكننا من اختبار الفرضية؛ إثباتاً أو نفياً. إذ من نافلة القول أن المفردات المذكورة وإن كانت في إطارها اللغوي تحتفظ بدلالة يمكن دعوى الاتفاق عليها، إلا أنها في إطارها المعرفي تتسم بالاختلاف طبقاً لاختلاف المدارس في مبتنياتها الفكرية والفلسفية. وهذا يعني أن أول ما يجب القيام به هو تحديد مفاهيمي، يتجاوز الإطار اللغوي؛ للبحث في المفردة على مستوى المفهوم والإشكالية، ثم اختبار نسبة هذه المفاهيم إلى أهل البيت عليهم السلام لمعرفة حدودها وأطرها، مما يرسم لنا الصورة كاملة حتى يتاح لنا الاختبار والحكم، وهذا ثاني ما يجب القيام به.

- معرفة الألفاظ لا تكفي لتأسيس تفاهم بين البشر، بل لا بد من معرفة القصود، ألا ترى أن الإنسان زُوّد بالعينين، واللسان، والحنجرة، وقسمات الوجه، واليدين، والرجلين. . كل ذلك ليوضح للآخرين ما يقصد.
- أكثر خلافات البشر ناشئة من سوء الفهم، وأكثر سوء الفهم ناشئ من سوء التفاهم، وأكثر سوء التفاهم ناشئ من سوء التفهيم، وأكثر سوء التفهيم ناشئ من قصور التعبير، وأكثر قصور التعبير ناشئ من غموض «المفاهيم».
- في عالمنا الإسلامي العديد من الحوارات والجدالات والصراعات. منها الحامية ومنها الهادئة، وبعضها باللسان والآخر بالسلاح، وبينهم برزخ. لكل طرف على الحد الأدنى لسان يتحدث به، ولأكثرهم فوق اللسان جوارح وجوانح تشاركهم في تفاعلاتهم. كلهم يتحدثون في مشاكل متشابهة، لكن أغلبهم يتحدثون مع أنفسهم؟ لأن كلاً منهم صنع لنفسه مناخه الخاص بمفرداته الخاصة وبأسلوبه الخاص، وأبى أن يشرح صدره للآخر أو يفتح أذنه على أقل التقادير.

تحديد المفاهيم

لعل من الجيد جداً بل ومن الضروري الرجوع إلى أهل لغة معينة لمعرفة دلالة مفردة معينة على معنىً، والتوفيق يحالف الباحث كثيراً إذا ما أراد البحث في مفردات لغوية ترتبط بأمور خارجية كانت متداولة عند أهل تلك اللغة قديماً، لأنه سيجد في كتب لغوييهم ما يشير إلى معنى المفردة عندهم، كالبحث عن دلالة لفظ «مِغْفَر» في اللغة العربية؛ ليجد ـ بعد البحث ـ أنها آلة تصنع بكيفية خاصة للتدرّع في الحرب، وتوضع على الرأس. لكن التوفيق لن يحالف الباحث كثيراً عندما يريد البحث في مفردات لا ترتبط بأمور معاشية خارجية استعمالية، بل هي مرتبطة بمسائل معنوية تحمل في طياتها مفهوماً يتضمن رؤيةً معرفيةً ذات

خلفيةٍ فلسفيةٍ معينةٍ تختلف باختلاف أنظارهم ومذاهبهم، كمفردة «الإيمان»، «الدّين»، «الغيب»... وغيرها. إذ في هذا المستوى لا بدّ من أدوات ووسائل مختلفة تتناسب مع الموضوع محل البحث.

وما نحن فيه، في إطار تحديد مفاهيم الدراسة من قبيل النوع الثاني، لأنها مفاهيم مبنائيّة **أولاً**، وتحمل في طياتها ـ وفقاً لمبناها ـ إشكاليات معرفية **ثانياً**.

- لا منّة من الله خير من الهداية.. والكل يدعيها لنفسه ولا أسوء للإنسان من أن يبتلى بالضلالة.. وكل يدعى تجنبها لذا كان من الضروري وجود «الحكم الفصل» وإلا لصار القاتل والمقتول في الجنّة، والظالم والمظلوم في النار.
- لن نكون متفائلين بعلماء يستخدمون أدواتٍ في غير مواضعها، ومواضيع في بغير أدواتها، ومناهج في غير مسائلها، ومسائل في غير مناهجها.. فيخلطون ويُخلطون، ويزلون ويُزلونْ.. وتكون نتائجهم أبعد ما بين المشرقين.
- الباحث عن الحقيقة قلبه وراء عقله، ومن كان عقله وراء قلبه لن يرى الحقيقة أبداً.

الضلالة؛ المفهوم، الحدود، المرجعية

المفهوم

مما لا يشك فيه أحد، ويعد من بديهيات الإنسان التي يدركها بوجدانه، وجودُ الخير والشر في حياته، بحيث يسعى الإنسان بفطرته لبلوغ الخير ونيله، واجتناب الشر ونبذه، بل إن منشأ التقييم والمفاضلة والموازنة بين أمور الحياة المختلفة نتيجة اعتقاد الإنسان بوجود حدٍ أعلى يمثل الحسن والجمال والنفع، وحدٍ أدنى يمثل القبح والفساد والضرر، بحيث يصنِف فعلاً أو فكرةً أو شيئاً ما بأنه ضمن الحد الأعلى أو الأدنى.

ولا يهم في هذه الحالة وضوح مفهوم الخير والشر أو غموضه لدى البشر، أو حتى اتفاقهم أو اختلافهم فيهما، إنما القضية الأساسية أن حالة البحث المستمرة لدى البشر تجاه الخير واجتناب

الشر أمر لا شك فيه، لأن الخير ملازم للسعادة، والشر ملازم للشقاء.

وعندما يريد الإنسان الوصول إلى الخير فإنّه يتّخذ وسائلَ وطرقاً لمسيره، بحيث توفر له هذه الوسائل حدوداً تفصل الخير عن الشر على مستوى المفهوم، وفي الوقت نفسه على مستوى التطبيق، وهذه المعايير والمقاييس هي ما يعبر عنها بـ«الهدى»، في حين أن ما يؤدي إلى الشر هو «الضلالة»، وبهذا يكون **مفهوم «الضلالة»: أنها في مقابل «الهداية»، وهي الطريق الموصل إلى الشر والملازم للشقاء.**

وههنا عدة حقائق في الإطار المفاهيمي:

١ ـ ليست الضلالة والهدى أمرَين يبتغيان لذاتهما، بل هما عنوانان لطريق الخير والشر؛ حيث هما المطلوبان. وذلك لأن الخير ملازم للسعادة؛ وهي غاية الإنسان، والشر ملازم للشقاء؛ وهو ما يسعى لاجتنابه.

٢ ـ إدراك هذا المعنى «للضلالة» و«الهدى» أمر وجدانيّ، يجده كل إنسان في نفسه وفي

الآخرين؛ منذ أن وجد الإنسان على الأرض وإلى اليوم.

٣ ـ في إطار إثبات هذه الحالة في الإنسان ـ السعي للخير وتجنب الشر، واتخاذ الهدى واجتناب الضلالة ـ لا ندعي ـ في هذه المرحلة ـ مفهوماً محدداً مشخّصاً للخير والهدى، والشر والضلالة، وإنما نثبت أصل الموضوع، لأن تحديد معنى الخير والشر وكيفية الوصول والاجتناب، تبقى مسألة مبنائيّة تعتمد على اجتهاد كل مدرسة فكرية في تحديد معناهما، وهذا يعني أن ما هو خيرٌ عند طرفٍ قد يكون شراً عند آخر، وما هو هدى قد يكون ضلالة، وهكذا. **لكن الذي لا يختلف فيه كل البشر أصل وجود الخير وابتغائه، والشر واجتنابه، وهذا ما نريد إثباته في هذه المرحلة في إطار تحديد مفهومَي الضلالة والهدى.**

الحدود

بناءً على التأسيس السابق لمعنى الهدى والضلالة يتجلى لنا مدى استغراقهما في حياة الإنسان، بحيث يستوعبان كل تفاصيلها، ابتداء من الفكر وانتهاء بالعمل والنتيجة، بحيث لا تبقى هنالك منطقة فراغ واحدة في حياة الإنسان خارجة عن أحد عنوانَي الهدى أو الضلالة، فحتى بعض الأمور التي تبدو للوهلة الأولى أنها محايدة ولا تتصل بأي منهما إلا أنها في نهاية المطاف داخلة في إطارهما، وهذا ـ طبعاً ـ لا يلغي تفاوت الأمور في الخارج شدةً وضعفاً في انطباق أحد العنوانين عليهما، إذ إنّ بعض الأمور واضحة الدلالة في انطباق عنوان الشر عليها، كقتل النفس المحترمة عند معتقد حرمتها، وأداء نسك عبادي معين عند معتقد ضرورته لبلوغ الخير، والبعض الآخر أضعف انطباقاً. لكن المحصل النهائي هو: استغراق عنوانَيْ الخير والشر في كل تفاصيل الحياة.

وهذا يجلي حقيقة أخرى وهي اتساع دائرة

مفهومَيْ الهدى والضلالة من الدائرة الفردية الخاصة إلى الدائرة الاجتماعية العامة، حيث ما دام كل أمر من حياة الإنسان داخل في أحد العنوانين، لابد من أن تدخل الحياة الاجتماعية العامة ضمن أحدهما كما دخلت الحياة الفردية الخاصة، لأن ذات الأسئلة المصيرية تتكرر في مدى صلاحية هذا النظام الأسري المعين ـ على سبيل المثال ـ في تحقيق الخير واجتناب الشر، أو السياسي أو الاقتصادي أو التعليمي... الخ، وبعبارة أخرى مدى هديِ هذا النظام إلى الخير، وإضلال ذلك نحو الشر.

المرجعية

من خلال التفسير السابق لمفهومَيْ الهدى والضلالة وحدوديهما، يتفرع سؤال آخر، هو البند الثالث ضمن المناقشة المفهومية، مفاده: إذا كان أمر الهداية والضلالة بهذا المستوى من الأهمية، فما هي المرجعية النهائية التي تحدد الهدى من الضلالة، بحيث توفر للإنسان الخلاص؟ وبعبارة أخرى: أي الأنظمة المعرفية

هي التي تقدم النظام الهادي للسعادة على المستوى الفردي (الأخلاقي، النفسي..) والاجتماعي (السياسي، الاقتصادي..)؟

والحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال متنوعة بقدر تنوع البشر بأفكارهم ومذاهبهم ومفاهيمهم، حيث قدّم كل طرف منهم مفهوماً خاصاً عن السعادة أولاً، ثم شرع في تأسيس أصولٍ ومناهجَ للوصول إليها ثانياً. فمنهم من حدد السعادة في إطار عالم الدنيا؛ خصوصاً بعد أن ألغى عالم الآخرة واعتبره ضرباً من الغيب الذي لا يمكن الحديث عنه، وآخرين اعتقدوا بوجود عالم آخر غير هذا العالم، وبالتالي جاوزوا معنى السعادة إلى ذلك العالم أيضاً، وهؤلاء هم أكثر البشر على مرّ التاريخ؛ إذ إنّ غالبية البشر مؤمنون.

ولأن الدراسة غير معقودة لبحث تفاصيل هذا الموضوع؛ إذ للبحث فيه مجالات خاصة في علم الكلام والفلسفة. لكن الذي يهمنا من هذا البحث بما له دخل في إطار المناقشة المفهومية لمعنى الضلالة هو الحديث في إطار المؤمنين بالله ـ

سبحانه ـ والمعتقدين بعالم الآخرة، وبالتالي مع الذين يؤمنون باتساع مفهوم السعادة لأبعد من عالم الدنيا، إذ إنهم جميعاً يؤمنون بمرجعية للدين في تحديد سبل السعادة (الهداية)، ولكنهم يختلفون في سعة دائرة هذه المرجعية أولاً، وانفرادها في عالم الدنيا ثانياً. وبعبارة أخرى: بعد أن تحدد لنا مفهوم الهداية والضلالة، وسعة دائرتهما، بقي الحديث الأساس في الموضوع، وهو الذي يختص بمناقشة المرجعية النهائية في تفسير معنى السعادة بشكل تفصيلي أولاً، وهل أن هذه المرجعية هي الوحيدة الكفيلة بتوفيرها أم أنها جزء مشارك لمرجعيات أخرى تعاضدها في التنظير والتوجيه والتطبيق ثانياً؟ ومن الواضح أن الحديث هنا مع المؤمنين بالدين ولو بصورة جزئية.

إذاً، يمكننا صياغة سؤال البحث في هذا البند بالشكل الآتي: أين تقف حدود الدين كمرجعية معرفية في تحديد «الهداية» و«الضلالة»؟

والظاهر أن مثل هذه الإثارة بهذه الصيغة لم

تكن مطروحة بشكل ملحّ قبل تنامي الثورة العلمية التي بدأت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، وتبلورت في نهايات القرن الثامن عشر[1]، حيث كان الدين هو المسهم الأول في صياغة حياة الناس آنذاك، لكن مع تنامي العلم وتضخم آلياته التكنولوجية، وتصاعد الاهتمام بالعلوم الإنسانية والاجتماعية؛ التي تحاول دراسة الإنسان وتقديم المعالجات لمشاكله اليومية على المستويين الفردي والاجتماعي، بدأت تطرح نتائجُ هذه العلوم باعتبارها مرجعية تفسيرية مزاحمة بل ومعارضة لمرجعية الدين، وكلما تنامى العلم أكثر ازداد السؤال إلحاحاً، وبهذا

(١) لا يزال الجدل قائماً بين مؤرخي الحضارات في تقسيم التاريخ الغربي ومراحله، وبالذات عصر النهضة؛ والذي يبدو أن سبب هذا الجدل هو دخول البعد المعياري لا الوصفي في التحديد، فبعض نظر إلى تاريخ العلم، وآخر إلى تاريخ الفلسفة، وآخر إلى وضع السلطة «السياسة»، وعلى أساس البعد الذي توجه إليه نظره أرّخ. وما نعتمده في هذه الدراسة ليس أيّاً مما ذكر بل مزيج منها وبصورة تقريبية بعيدة عن عمل المؤرخ وقريبة إلى نظر عالم الاجتماع.

كانت بدايات القرن التاسع عشر وحتى اليوم العصرَ الذهبي لنمو هذه الإثارة بل واشتدادها وهيمنتها على مرافق واسعة من الحياة المعاصرة، هذا في الإطار المسيحي الغربي.

أما على المستوى الإسلامي فلم يكن السؤال ملحاً إلا بعد دخول العالم الإسلامي في بوتقة الحضارة الحديثة التي يعتبر العلم[1] فيها السمة

(١) لابد من الإشارة هنا أن المنظور من لفظ «العلم» هنا ليس البعد المعياري بل الوصفي، بمعنى: أن العلم هنا شعارٌ مثله مثل أي شعار تقوم به الحركات الاجتماعية في لحظات معينة من التاريخ، بغية تغيير حالة اجتماعية معينة، وليس المقصود من العلم هنا الحقيقةَ والواقعَ والعقلانيةَ، أو غيرها من الألفاظ. فما حصل في الغرب هو أن قامت مجموعة من الكشوف العلمية بالاعتماد على مناهج معينة وفي الغالب تجريبية، استطاعت أن تزلزل الكثير من المسلمات في مختلف مناحي الحياة، ثم وبعد ذلك آمنت الشعوب الأوربية بهذه الحالة؛ وهي الرجوع إلى المناهج التجريبية في الغالب لتفسير كل شيء، حتى بالغ بعضهم في هذه الحالة وصار كمن يريد تفسير كل شيء من خلال التأمل فقط (المثاليون)، حتى تحولت هذه الحالة إلى مرجعية تفسيرية، تماماً كما تقوم التيارات الماركسية والشيوعية =

البارزة، أي أن مثل هذا التساؤل بدأ مع انهيار الدولة العثمانية، ودخول العالم في الحرب العالمية الثانية، وتقاسم الغرب للعالم الإسلامي، حيث حصل آنذاك التلاقي بين الإسلام والغرب على المستوى الحضاري، وبتنامي الصحوة الإسلامية ودخولها في خيارات بناء المجتمع ضمن الوضع الجديد؛ الشديد التغيير والتقلب، بات التساؤل يأخذ حيِّزاً ملحاً جداً في ذهن المسلم اليوم، لما يراه من تنازع خيارات الحضارة الغربية مع خيارات الدين، فاشتد السؤال إلحاحاً كما نضجت معالجاته.

منهجان في حدود المرجعية

وفي الإجابة على السؤال المطروح هنالك

= بتفسير حركة المتجمعات من خلال المنظور الماركسي والمنطق الجدلي وحركة التاريخ وصراع الطبقات. وهذه الحالة محل بحث ونظر لدى علماء الاجتماع. وإلا فإن العلم بما هو واقع وحقيقة وعقلانية لا نتصور له تعارضاً واقعياً مع الدين، بل المعارضة هي بين مدّعٍ يدعي كونه علماً وآخر يدعي العلم عنده.

منهجان في المعالجة[1]، يبتني التفريق بينهما على أساس نقطة أساسية وجوهرية تعد الفارق بينهما؛ وهي: **أين هي حدود الدين؟! حتى إذا ما عرفناها عرفنا حدود الهداية والضلالة التي يقوم الدين ببيانها. وهذا يعني سؤالاً آخر: كيف نعرف حدود الدين وإطاره؟! وههنا منهجان** أحدهما يقول: إن حدود أي دين متوقفة على ما يتوقعه الإنسان من الدين أن يقدمه له في المساحات التي لا يمكن لأي حقل من حقول المعرفة الأخرى أن تقدمه. هذا مدعى المنهج الأول، والذي يصطلح عليه بـ«المنهج الخارجي» في دراسة الدين. في حين يرى المنهج الآخر أن نقطة الإطلاق في تحديد حدود الدين هي الدين نفسه، وذلك من خلال نبيه ونصوصه، وهذا المنهج يصطلح عليه بـ«المنهج الداخلي» في دراسة الدين. ولتوضيح

(١) معالجة موضوع «حدود الدين» يحتمل في نفسه جوانب وزوايا أكثر مما ذكر، ويختزن مباحث كثيرة ومفصلة، والزاوية المنظورة في البحث. وبصورة موجزة. هي أصل البحث من زاوية آلية ومعيارية التحديد لرسم هذه الحدود.

المسألة بشكل أكثر نلجأ للتفصيل الآتي:

عندما درس علماءُ النفس الإنسانَ، ورصدوا مجمل انفعالاته محاولين تقديم معالجات لمشاكله النفسية التي تعتريه في خضم الحياة، وجدوا أن ثمة مناطق أساسية في حياته إن بقيت دون معالجة فسيبقى هذا الإنسان مسلوب السعادة، دائم القلق والخوف، يعيش الاضطراب، وكلما حاولوا أن يقدموا له معالجات نفسية باؤوا بالفشل، ثم وجدوا أن هذا الفراغ لا يسده إلا «الدين»؛ بما يقدمه من تصورات عن أهم الأسئلة الوجودية للإنسان، ابتداء من المبدأ إلى المعاد في عالم الآخرة، هنالك حددوا دائرة الدين في هذا الإطار. والتجربة نفسها مر بها علماء الاجتماع والسياسة وغيرهم، فصار كلٌّ يحدد حدود الدين طبق توقعه لمساهمة الدين في حياته حين فشلت الحقول المعرفية الأخرى في تقديم الحلول التي تساهم في سعادته كالروحانيات، والمعنويات، والعرفان، وطقوس العبادة، وتفسير الكون، ومجموع القيم الأخلاقية النبيلة.. إلخ؛ هذه رؤية المنهج الأول.

لكن المنهج الآخر آمن بالله ـ سبحانه ـ ورسالته للبشرية ولم يحدد لنفسه مسبقاً أي توقع من الدين، بل انتظر جواباً من الدين نفسه يحدد دائرته ومساحته في الحياة، وإلى أي مدى يساهم في توفير الهداية والسعادة. وهذا المنهج في هذه المرحلة لا يذعن بأية حدود بل يقف منتظراً الدين نفسه، فإذا ما ادعى الدينُ شموليته لكل تفاصيل الحياة أذعن بهذه الشمولية، أما إذا ادعى اقتصاره على جانبٍ معينٍ من الحياة أذعن كذلك.

والسؤال هو: عن صلاحية أيٍ من المنهجين ـ الداخلي أم الخارجي ـ من الناحية المنطقية والمعرفية لمعرفة حدود الدين؟

الأساس النظري للمنهج الأول (الخارجي)

حاول بعض المتبنين للمنهج الخارجي تقديم تبريرٍ منطقيٍ معرفيٍ يدعي أوحدية هذا المنهج في دراسة الدين، بل إن أي محاولة لمعرفة حدود الدين خارج هذا المنهج ستنتهي لتسييس الدين وأدلجته وعَلْمَنته، ومن أبرز المدافعين عن هذا

المنهج هو الدكتور عبدالكريم سروش؛ الذي يعرض نظريته في هذا المجال في مقامين، الأول بنائي؛ يستدل فيه على أحقية منهجه، والثاني نقضي؛ ينقد فيه المنهج الداخلي، أي أن د.سروش قام بعملتَي بناء وهدم، بناء لمنهجه وهدم للمنهج المخالف (الداخلي).

المقام الأول: أسس البناء

يقول د.سروش في مقام عرض نظرتيه: «إن توقُّعنا من الدين يعني تحديد ما يمكن للدين أن يؤديه لنا، وما الذي جاء يفعله، وما مدى قدرته على الوفاء بذلك. وواضح أن تحديد قدرات الدين متوقف على تشخيص جوهره، والحاجات التي تدفع بالإنسان إليه. فالدين الذي لا يفي بحاجات الإنسان الأساسية (تلك الحاجات المعطَّلة التي لم تُلَبَّ من مَعين آخر) دين مرفوض لا فائدة منه. من هنا، يتوقف تحديد مدى توقعنا من الدين على تحديد أمرين: أحدهما **جوهر الدين**، والآخر **الحاجات الأساسية** التي لا تسد

من مكان آخر، وتحديد هذين الأمرين لا يتم إلا من خارج الدين»[1].

ولأن حاجات الإنسان تتطور بتطور الحياة فإن «ما يترقبه الإنسان من الدين عرضة أبداً للتحول التاريخي، أي أن إدراك الإنسان لسؤاله الأساسي الموجه لله والنبي يتطور تدريجياً عبر تاريخ وجوده، فيميز الثانوي والفرعي من بين أسئلته»[2].

وبالتالي لو أن ديناً ما لم يستطع تلبية حاجات الإنسان الأساسية فسيكون مصيره كما قال د. سروش: «الدين الذي لا يلبّي حاجات الإنسان الأساسية دين مرفوض لا فائدة منه»[3].

والدليل الذي يرتكز عليه د. سروش لإثبات نظريّته دليلٌ معرفي؛ متعلقٌ بمسألة في علم

(١) الدين بين الحدود والتوقع، عبدالله نصري؛ ترجمة أحمد العبيدي، ص٢٥، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧.

المعرفة، مفادها: أن عملية الفهم أساساً ترتكز على التوقع، فعندما يتوقع الإنسان من الفيلسوف تقديم تفسيرٍ معين للحياة فإنه يفهم كلام الفيلسوف بهذا الاتجاه، لكن لو توقع من الفيلسوف تفسيراً آخر أخص وأضيق دائرة من التوقع السابق فإنه لا يفهم منه سوى ما توقعه، وكذلك الأمر في مجالات المعرفة الأخرى حيث يؤدي التوقع دوراً معرفياً كبيراً في فهم الأمور، وكذلك الأمر مع الدين، فعندما نتوقع منه تقديم تفسير لكل شيء فإننا سننبش في كل صغيرة وكبيرة فيه لاستخراج ما توقعنا، والعكس بالعكس، يقول د. سروش «فهم النص الديني متوقف على تعيين وتحديد ما نترقبه من الدين، وليس العكس، إذ لو فرض أن شخصاً يحسب أن القرآن والسنة قادران على رفدنا بكل شؤون الحياة وأسرار العالم صغيرها وكبيرها، لبدَت العبارات لديه بصورة أخرى، ولبذل قصارى جهده على أبسط الإشارات من الكتاب والسنة ليستخرج منها علاج مسائله في حقل

الضوء والحركة والفلك والكيمياء والذرة...»[1].

إذاً، ملخص نظرية د. سروش: إن التوقع هو الذي يحدد دائرة وحدود الدين، وهذا التوقع متوقف على أمرين أحدهما مولد للآخر، وهما يُتحصلان من خارج الدين لا من داخله: الأول جوهر الدين، الذي يعرف من خلال تنقيح حاجات الإنسان الأساسية.

ثم إن مبنى التوقع يستلزم أمرين في الخارج (إثباتاً):

١ ـ دائرة الدين وحدوده ليست ثابتة، بل هي عرضة للتحول التاريخي الكاشف عن حاجات الإنسان المستجدة.

٢ ـ الدين الذي لا يلبي حاجات الإنسان مرفوضٌ لعدم فائدته.

ودليله في كل ذلك هو: مبنى معرفياً مفاده: توقف الفهم، وفهم نصوص الدين خصوصاً، على التوقع.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٩.

مناقشة المقام الأول: أسس البناء

ولنا أن نناقش هذه النظرية لاختبار مدى صحتها من خطئها. وجوهر المناقشة يبدأ من دليل النظرية؛ إذ هي مستنده، ومن ثم ننتقل في المناقشة إلى كبرى[1] النظرية (منشأ التوقعات)، وأخيراً إلى مجموع اللوازم التي تلزم النظرية ونرى مدى صحتها.

١ ـ دليل النظرية:

يتقوم الدليل بكبرى معرفية تدعي: «أن عملية الفهم مبنية على التوقع». وما لم نتوقع فلن نفهم، وواضح أن خلفية هذا الرأي مستمدة من الفلسفات الحديثة «الفردية»، بل والمتمحضة في الفردية، والتي تدعي عدم فاعلية النص إطلاقاً، بل النص عندهم مرتبط بقارئه وحقله الثقافي، فما

(١) المقصود بـ«الكبرى» هو ما درج عليه المناطقة في تشكيل القياس التمثيلي من مقدمتين إحداهما كبرى والثانية صغرى، ثم النتيجة، ولأن قدرة القياس على الإنتاج موقفة بالدرجة الأولى على الكبرى؛ حيث فرضوا فيه اليقين، فإن المناقشة، لأي قياس، إذا هدمت كبراه سقط عن الحجية.

يتوقعه القارئ من نصٍ فهو مراد صاحب النص، إن وجد والحال هذه صاحب نص. ولأن القرّاء متفاوتون في ثقافاتهم فإن توقعاتهم متفاوتة ومختلفة ويمكن حملها جميعاً على النص، وفي الحالة هذه ينعدم مراد المتكلم (صاحب النص).

ووجه المناقشة الأساسية في هذا الدليل هو: عند حصر الفهم بالتوقع فإن غير المتوقِع[1] لن يفهم شيئاً، فلا يمكن للباحث، أي باحث، أن يفهم الدين المسيحي مثلاً إلا بعد أن يتوقع من الدين المسيحي أموراً معينة. ثم لو أراد هذا الباحث أن يفهم الدين الإسلامي، وكرر التوقعات نفسها فإنه سيفهم الدين الإسلامي على أساس هذه التوقعات لا غير، وبالتالي سينتهي إلى وحدة الديانتين الإسلام والمسيحية، وذلك لوحدة التوقعات، كل هذا دون أن يكون للنص (الدين) أي فاعلية في الإجابة.

وهذا يعني في نهاية المطاف: أن الدين ما توقعتُ لا غير. إذاً، فإن عملية التوقع من الدين

(١) بصيغة الفاعل.

من أساسها كانت لغواً، لأن التوقع هو المُفهِم[1] للدين، وعند الفهم سأحصل على التوقع نفسه لا غير. أي أن العملية تحصيل للحاصل، وللتوضيح نضرب مثالاً: لو أننا توقعنا أن حاجة الإنسان للمعنويات والروحانيات المتعلقة بين الإنسان وربه، تُتحصل من الدين، وذلك ـ طبعاً ـ بعد دراسات في حقول المعرفة المتنوعة من علم النفس والاجتماع.. الخ، وأردنا أن نستحصلها من الدين، لكن قبل بدأ التحصيل قمنا بتفصيل للتوقع نفسه، وذلك بطرح السؤال الآتي: أي نوع من الروحانيات سيلبيها الدين؟ هل هي نسك عبادي خاص ذو حركات خاصة مصحوبة بأذكار لفظية أم لا؟ وكان الجواب ـ بمَعِيّة الدراسات المعرفية ـ أن لا مدخلية للنسك والحركات في تحقيق الروحانية والمعنوية، بل المطلوبُ خاصةً هو الذكر اللفظي فقط.

ثم طرحنا سؤال توقعي أكثر تفصيلاً: هل الذكر المطلوب هذا يلزم أن يكون ذو تناسق

---

(١) بصيغة الفاعل.

موسيقي في الألفاظ؛ بحيث تكون وقفاته وحركاته وكلماته متناسبة مع مخارج الحروف بحيث لا تُثقِل الحنجرة ورئتَي الإنسان أم لا؟ وكان الجواب ـ بمَعِيّة الدراسات المعرفية ـ أن المطلوب كذلك. فأصبح عندنا توقع من الدين هو: تلبية حاجة الإنسان للمعنويات والروحانيات بكيفية خاصة هي ذكر لفظي متناسق التركيب الموسيقي. ثم سألنا الدين عن هذا الشيء المتوقَع، فأجاب الدين الإسلامي بصلاة الليل، المكونة من أحدَ عشرةَ ركعة؛ المتضمنة لذكر لفظي متناسق التركيب الموسيقي، في الحالة هذه سيكون موقفنا هو: أن الدين ـ في هذا الموضوع ـ هو مجرد تلك الأذكار، لا الركوع والسجود (الصلاة). إذاً، ما توقعناه وأردنا تحصيله (تلبية حاجة الإنسان للمعنويات والروحانيات بكيفية خاصة؛ هي ذكر لفظي متناسق التركيب الموسيقي) حاصل من الأول، إنما الفارق الوحيد فقط هو شخصية الذكر اللفظي وهو «دعاء الرهبة» مثلاً، وواضح أن هذا الفرق لا يغير من التوقع شيئاً.

إذاً، تحصل: إن ربط الفهم بالتوقع يعني تحصيل الحاصل، وتحصيل الحاصل باطل.

٢ ـ منشأ التوقعات:

يتقوم منشأ التوقعات على أساس تنقيح حاجات الإنسان، فإذا ما عيت حقول المعرفة عن تلبية حاجة أساسية من حاجات الإنسان سألنا الدين عنها ليجيبنا، أما إذا وَجدَت حاجةُ الإنسان ضالّتَها في أحد حقول المعرفة فإنها تستغني عن الدين في تلك الحاجة.

وجوهر المناقشة في هذا المدعى هو: أن وجود الدين مناط بالحاجة، وتنقيح الحاجة مناط بحقول المعرفة المتنوعة كعلم النفس، والاجتماع، والسياسة، والأخلاق... الخ، وصدق الدين مناط بتلبية الحاجة التي عَيت تلك الحقول عن تلبيتها، وكما قال صاحب النظرية ـ بناءً على ما مرّ ـ إن دائرة الدين في تحول طبقاً لكشوفات العلم في تشخيص حاجات الإنسان، لكن السؤال هو: لو احتملنا ـ وهذا الاحتمال عقلي ممكن ـ أن كشوفات العلم أثبتت ـ بعد

خبرتها المتراكمة ـ سدّ حاجات الإنسان في كل المجالات بحيث لم تبق منطقة في حياة الإنسان تشكل حاجة أساسية لا يمكن تلبيتها، بل كل الحاجات قد لُبيَت، في هذه الحالة: سينتفي وجود الدين من الأساس، هذا **أولاً**، وسيكذب النبي **ثانياً**، أي نبي، لأن نبوته متقومة بسدّ حاجة الإنسان حيث لا مَسَدّ لها، والعلم الذي هو المرجعية الأولى، أثبت عدم الحاجة إطلاقاً.

لكن لقائل أن يستبعد هذا الاحتمال بدعوى استحالة سدّ العلم كل حاجات الإنسان. وجوابنا: **أن وجه الاستحالة ما هو؟!**

إن كان صدق الدين، **فإن صدق الدين مناط بتلبية حاجة الإنسان.**

وإن كان بدعوى: أنه لا يمكن للعلم أن يسدّ كل حاجات الإنسان... هنا نسأل: **هذه الدعوى من أين حصلت؟ مِن العلم نفسه أم من غيره؟**

إن كانت من العلم نفسه **فهذه دعوى إثباتية ـ على فرض صحتها ـ وكلامنا ثبوتي.** ناهيك أن

العلم حسب مبنى د. سروش نسبي وفي تطور، وهذا الاحتمال ممكن بحد ذاته.

وإن كان من غيره، **فهذا خلاف الفرض، حيث الفرض أن حاجات الإنسان تنقح في إطار العلم لا غير، وإلا لو ادعي أن من الممكن أن تقوم جهة أخرى غير العلم بتنقيح حاجات الإنسان فلماذا لا تكون الدين نفسه؟!!**

هذا مضافاً إلى كون دعوى: أن الدين مهمته الحاجات الأساسية للإنسان، هي **دعوى اعتباطية**، لماذا لا يكون للدين دور حتى في الحاجات الثانوية للإنسان؟ **ناهيك عن الفوضى المعيارية** في فرز الحاجات الأساسية عن الثانوية؛ إذ ما المعيار في ذلك؟ كل هذه الأسئلة ساكتة عنها النظرية، ولم تقدم إجابة عليها بل أطلقت الموضوع إطلاقاً.

٣ ـ بعض لوازم النظرية:

للنظرية مجموعة من اللوازم التي تلزم أموراً باطلة، قد لا يقرّ بها نفس صاحب النظرية، وتوضيحها كالآتي:

أ ـ لأن الدين هو الذي يلبي حاجات الإنسان، فإن الدين الذي لا يقوم بهذه المهمة باطل مرفوض لا يجدي نفعاً، في حين أن ما يلبي الحاجة هو حق مقبول فيه النفع.

والملاحَظ:

- لا معيارية هنا لأحقية الدين من بطلانه؛ أي ليس مهماً كون هذا الدين المعين محقاً في حد ذاته وفي أرض الواقع؛ منزّلاً من الله ـ سبحانه ـ، أم لا، بل المعيار نفعيّتَه لسدّ حاجة الإنسان حتى لو كان هذا الدين خرافة. إذاً، فأي خصوصية للدين في أصل الموضوع، إذ يمكن لغير الدين من خرافات البشر وأساطيرهم أن تقوم بالمهمة ذاتها، ولا وجه لتخصيص الدين بمهمة «تلبية ما لم تلبِّه حقول المعرفة الأخرى من حاجة الإنسان»، بل يمكن للرياضات الروحية الحديثة التي تعتمد على تقنية معينة؛ كالتأمل والتنفس وغيرها، أن تكون بديلاً عن الدين.

ب ـ لأن الدين هو ما نتوقعه، فإن كلَ فهمٍ للدين منطلقٍ من التوقع، فهمٌ صحيح، من دون أن يكون للدين أمرٌ واقعيٌ نبتغي الوصول إليه، أي لا يوجد في الدين أمورٌ تحاول تصحيح أو تخطئة ما توقعناه، بل وحتى لا يوجد فيه ما يحدد من سعة وضيق التوقعات، فكل ما توقعناه صحيح وهو الدين من دون أي مناهضة.

والملاحَظ:

● هذا يلزم منه كل لوازم التصويب الأشعري، لأنه لا يختلف في جوهره عن التصويب الأشعري، وإن اختلف في الأداة، حيث أن أداة الكشف عند الأشعري «الأمارة» تصيب الواقع دائماً وأبداً، وعند د. سروش «التوقع»[1].

(١) سجل أصولي الإمامية مجموعة من اللوازم الباطلة على القائلين بالتصويب بكلا شقيه؛ الأشعري والمعتزلي، وفي خصوص الأشعري هذا مجمل ما أفادوه من لوازم باطلة: =

المقام الثاني: أسس الهدم

في هذا المقام يحاول د. سروش إثبات نظريته من خلال هدم بناء النظرية المقابلة له (المنهج الداخلي)، ويقدم في هذا الإطار إشكالاً نقضياً على الذين يدّعون صلاحية المنهج الداخلي، مفاده هو الآتي:

بناءً على المنهج الداخلي لا يمكن لنا إثبات صدق أو كذب دعوى الدين في تلبيته لسدّ حاجات الإنسان، وذلك لأنه **إما** أن نلجأ للمنهج الداخلي في التصديق والتكذيب **وإما** للمنهج الخارجي، وحيث أن المنهج الداخلي لا يمكنه القيام بذلك؛ لأنه **إما** أن يكذب دعوى الدين وهذا خلاف طبيعة المنهج الداخلي لأنه في هذه الحالة يقع في تناقض، **أو** يصدقها بمقتضى

---

١ ـ توقف الحكم على العلم به، وهذا يلزم الدور الباطل.

٢ ـ لغوية الأمارة.

وللتفصيل يمكن مراجعة مباحث الحكم في كتب الأصوليين، حيث تطرقوا هناك للموضوع.

طبيعته وفي هذه الحالة لم نتحقق من صدق الدعوى أو كذبها. وحيث أن المنهج الداخلي لا يمكنه القيام بالمهمة فلا بد من المنهج الخارجي.
يقول د. سروش موضحاً فكرته: «لنفترض أن إنساناً رجع إلى الدين، وأنصت إليه في ما يخص تحديد أهدافه المرجوَّة، إلا أن المشكلة لا تنتهي هنا، لأن ذلك التحديد سيكون بمثابة ادعاء يعزوه التمييز بين كذبه وصدقه. تكتسب هذه المسألة أهميتها وظهورها لدى إنسان يدرس الدين من خارجه، وهو لا يؤمن بدين معين. فمن الضروري لشخص كهذا أن يعرف إن كانت ادعاءات الدين وتعاليمه صادقة أم لا. وعليه فليس من الممكن إطلاقاً أن نستنطق الدين نفسه في شأن سؤالنا: «ماذا نتوقع من الدين؟»، أو أن نكتفي بمجرد ادعاء الدين في هذا المجال»[1].

ويقول أيضاً: «افترضوا أن المذهب الماركسي عرّفنا بمدى توقعنا منه، وادعى أنه جاء للوفاء بسعادة الإنسان في الدنيا وبناء المجتمع وتعزيز

(١) المصدر السابق نفسه، ٢٩.

الصناعة والأدب والفن. فهل يقبل هذا الادعاء ويحكم بصدقه لمجرد صدوره من الماركسية؟

من المعلوم أننا نحتاج هنا لتعيين صدق المدعى أو كذبه لما هو أكثر من الادعاء نفسه، فالقضية غير محسومة حتى لو حدد لنا مذهب مدى توقعنا منه»[1].

مناقشة المقام الثاني: أسس الهدم

وقبل مناقشة المقام الثاني لا بد من التذكير إننا وضمن مناقشة المقام الأول قد ذكرنا ـ ضمناً ـ ما يكفي لرد هذا الكلام، لكن سنحاول هنا تناول الموضوع من جهة أخرى.

أولاً: في الكلام مغالطة لا بد من كشفها، وهي قياس المذاهب البشرية التي لا تدعي أكثر من أن فكرها يستند ـ في أحسن الأحوال ـ على مستوى النظرية وبالجملة، على مجموعة من النظريات العقلية، مع المسامحة الواسعة في نسبة

(١) المصدر نفسه، ص٣١.

النظريات للحكم العقلي، بل هي أقرب إلى الممارسة الفكرية البشرية منها إلى العقل. وهي من حيث التطبيق لا تعدو أن تكون نشاطاً بشريّاً بحتاً، أقول قياسها على الأديان الإلهية التي تنفي البشرية في تعاليمها الأساسية وفي تطبيقها الخارجي الذي يقوم به شخص معصوم ـ حسب وجهة النظر الدينية ـ قياس مع الفارق باطلٌ.

ثانياً: نحن لا نلجأ للمنهج الداخلي إلا بعد الفراغ بمنهج خارجي؛ يعتمد البرهان واليقين والقطع[1] في إثبات الدين والنبوة ومعصومية النبي الناقل للوحي والمبيِن له.

وهذا يعني أننا في المنهج الداخلي لا نقوم بعملية كشف صدق المدعى من كذبه بل نأْتَمِر للدين بتسليم مطلق، إذ إن عملية كشف الصدق

(١) ما أعنيه هنا ترادف هذه المفردات وإنْ كانت على مستوى البحث والتدقيق غير ذلك، لأنّ الغرض المرجو هنا نسبة الأدلة التي قامت بإثبات الدين إلى اليقين لا أكثر.

والكذب انتهِيَ منها في مرحلة سابقة، وهذا فارقٌ أساسٌ بين من يُطوِّعُ الدين لذاتياتِه؛ من الهوى والشهوة، وبين من يُطوِّع ذاتياتِه للدين، فما يراد تحققه؛ وهو كشف صدق أو كذب الدين، قد تحقق في مرحلة سابقة عن اللجوء للمنهج الداخلي، ولا يُدعى أن المنهج الداخلي وظيفته الكشف عن الصدق من الكذب، بل هو منهج للفهم، ولمّا وضعه الدكتور سروش في غير موضعه، وطلب منه غير ما هو عنده، استنتج عقم هذا المنهج!! والحال أن الدكتور سروش في العملية هذه مثله مثل من استخدم الشمعة في ليل مظلم قاتم للكشف عن صورة مخطط المخ التي تحتاج عملية الكشف عنه إلى أشعة من نوع خاصة ذات كفاءة معينة، أو هو كمن أراد التذوق من أنفه فلمّا لم توصِل إليه كل أحاسيس الأنف الطعمَ كفر بالأنف أداةً للكشف، في حين أن المراد كشفه لا يتأتى بما استخدم من أداة.

فالدكتور سروش لم يفرق بين آليات «الفهم»

وآليات «القبول»، فلكل واحد منهما آلياتٌ ووسائلُ ومواقعُ مختلفةٌ عن الآخر[1].

الأساس النظري للمنهج الثاني (الداخلي)

لعله من الكفاية، ما دمنا نناقش أحد خيارين، إبطال المنهج الأول لتبرير اللجوء للمنهج الثاني، لكن هذا لا يمنع من عرض موجز مجمل للأسس النظرية التي قام عليها المنهج الداخلي، والعرض هو الآتي:

يبدأ هذا المنهج، وقبل اللجوء والحاجة إلى المنهج الداخلي، بإثبات الدين والنبوة العامتين، ثم الدين والنبوة الخاصتين؛ وهما الإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله، بمنهج خارجي، وأخيراً يستعين بالمنهج الداخلي لفهم تفاصيل حدود الدين، وذلك من الدين نفسه، حيث يحدد الدين نفسه معنى الخير والسعادة، والشر والشقاء، ثم معنى الهداية والضلالة، وحدود إفادته ـ أي الدين نفسه

(١) هذه الفكرة من فوائد سماحة الأستاذ السيد جعفر حسين العلوي، استفدناها من محضر درسه الكريم.

- في بيانهما، وكيفية تعامله مع الأمور الأخرى التي ادعى مرجعيتها في المقام أمثال: **العقل**؛ بمعنى الأحكام العقلية الأولية النظرية والعملية، و**العلم**؛ الذي هو تطبيق الأحكام العقلية على الواقع الخارجي بمصاحبة المادة، و**الضمير** أو **الوجدان**... الخ[1].

وهذا كله يرتبط ببحوث تفصيلية في حقل الكلام والفلسفة، تبحث خاتمية الدين، وشموليته، وكماله... وغيرها من المسائل، وما يهمنا في حدود هذه الدراسة هو إثبات ما سلف من أن مرجعية تحديد معنى الضلالة والهدى مناط بالدين، وهذا يمهد لنا الحديث في المفردة الثانية من البحث المفاهيمي وهي مفردة العصمة.

---

(١) تفصيل الحديث في إثبات الدين والنبوة، وما يلحق ببحث النبوة من تفاصيل، مناط بعلم الكلام وأصول الدين، والفلسفة، في حين أن كيفية فهم تفصيل الهداية والضلالة وتطبيقاتها في الخارج مناط بعلم أصول الفقه، وعلم الفقه، والأخلاق، وما يلحقها من علوم فرعية مساندة لمقام الإثبات.

- لا يكفي أن تعرف موضع العصمة لتعتصم بل لا بد لك من إتباعها.
- كثيرة هي الحقائق المشتركة بين بني البشر، لكن اختلاف ألسنتهم وألوانهم تجعلها أموراً متباينة، فإذا نظروا إلى جوهرها وتجاوزوا ألوانهم وألسنتهم تجدهم متقاربين متفاهمين، وإلا فحوار الطرشان خيارهم الوحيد.
- العصمة مشكلة بشرية مشتركة، كلٌ عبّر عنها بلسان قومه، فمنهم من سماها «عقلاً» وآخر «روحاً فوق الطبيعة»، وثالث «حركة التطور العلمي»، ورابع «حزباً»... ولكل منهم نصيب من الحقيقة لكن الحقيقة كلها لمن سماها باسمها وهو «المرسل من الله».

العصمة: المفهوم، الحدود

المفهوم

ترتبط العصمة بمفهوم الهداية ارتباطاً وثيقاً، وذلك: أن الإنسان بإدراكه للخير والشر، وسعيه لنيل الخير (الهداية)، واجتناب الشر (الضلالة)، يسأل بإلحاح عن ضمانة هذا السير والاجتناب من حيث الصحة والخطأ، والسؤال الذي يلّح عليه باستمرار: **هل ما أنا عليه الآن هو الموقع الصحيح في سيري نحو السعادة والخير أم لا؟** مع ملاحظة أن هذا البحث الدؤوب عن العصمة غير مختص بالمؤمنين فقط بل يشمل غيرهم، إذ لا فرق هنا أي المرجعيات انتخب؛ إلهية أم بشرية.

وبعبارة أخرى: لأن الإنسان يريد نيل الخير واجتناب الشر فإنه يرسم لنفسه طريقاً للوصول ووسائل للاجتناب، وسواء رسمها هو بنفسه أم أناط مسؤوليتها بيد الدين، فإنه يبقى يبحث عن

ضمانة صحة الطريق، فنرى المؤمن بالدين يسأل عن السبل الصحيحة في تلقي الهداية من الله ـ سبحانه ـ، ونرى من أناط مسؤولية الهداية لنفسه (العقل البشري) يسأل عن سبل سلامة الأحكام العقلية بحيث يمكنه من تحقيق الهداية بصورة صحيحة. بمعنى آخر: **السؤال في العصمة سؤال عن كيفية التلقي الصحيح للهداية، وهذا يكون على مستويين: الأول: المستوى النظري؛ وفيه يسأل الإنسان عن طرق فهم الهداية فهماً صحيحاً مطابقاً لواقع الهداية دون أدنى لبس. الثاني: المستوى العملي (التطبيقي)؛ وفيه يسأل الإنسان عن طرق تطبيق الهداية في الواقع الخارجي دون أن تشوبه أيّةُ ضلالة.**

وبهذا التقريب لمعنى العصمة، يمكننا دعوى: **أن مفهوم العصمة مفهومٌ متجذرٌ في الوعي البشري، لا ينفك عنه منذ وجد على الأرض، وإنْ اختلف البشر اختلافاً شديداً في تشخيصه في الواقع الخارجي، حيث ذهب بعض بالقول: أن العصمة مناطة بالعقل، وآخرين ادعوه في العلم**

ومناهجه، وغيرهم في الخبرة البشرية المتراكمة، وقوم في العقل الجمعي أو الدولة المطلقة، في حين ذهب المؤمنون بمرجعية الدين الشاملة إلى أنها متمثلة في النبي المعصوم ومن يقوم مقامه، وما يهمنا هو البحث في الإطار الأخير؛ إطار المؤمنين، وتفصيل الكلام كالآتي:

تكاد تتفق جميع الأديان على ضرورة عصمة الوسيط بين الإله والبشر؛ أي النبي، بل أن جوهر الأديان الأساس الذي يميز الفكر الديني عن أي فكر إلهي آخر هو إيمان الأديان بالنبوة، ومن لوازم النبوة وجود حدٍ معين من العصمة في النبي؛ تختلف سعة وضيقاً من دين لآخر، وذلك لضمان سلامة تبليغ رسالة الله ـ سبحانه ـ، لكن جوهر النبوة المعصومة ـ ولو جزئياً ـ أمرٌ مشتركٌ بين جميع الأديان[1].

---

(١) يشير الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته «اليهود واليهودية والصهيونية» في الجزء الخامس، الباب الخامس، بحث الأنبياء والنبوة، إلى وجود فكرة العصمة في النبي المرسل من الله ـ سبحانه ـ في الفكر اليهودي. أما المسيحية فهي الأخرى تؤمن بهذه العصمة في =

وهذا الأمر نجده بشكل واضح في الإطار الإسلامي، فجميع الفرق الكلامية الإسلامية تؤمن بحدٍ معينٍ من العصمة للنبي ﷺ؛ وذلك في تبليغ الرسالة، إلا أنها تختلف بعد ذلك في شمول هذه العصمة لسائر أفعال النبي ﷺ، ناهيك عن اختلافها في كيفية العصمة بالنسبة له ﷺ[1].

= تبليغ كلمة الله ـ سبحانه ـ للإنسان، بل إن دليل العصمة عندهم أحد طرق توجيه الحلول الإلهي في المسيح (اليسوع) أو بتعبيرهم حلول اللاهوت في الناسوت. لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة «دور العقل في تشكيل المعرفة الدينية» الشيخ مالك مصطفى وهبي العاملي، الفصل الرابع من الباب الثالث: مشكلة العقل في الإيمان المسيحي المعاصر؛ قضية الثالوث نموذجاً، دار الهادي. ط١، ٢٠٠٥م ـ ١٤٢٦هـ.

(١) يؤكد آية الله الشيخ جعفر السبحاني هذه الحقيقة قائلاً: «ذهب الأكثرون من الجمهور والشيعة أجمع إلى عصمتهم في تلك المرحلة [مرحلة تبليغ الرسالة]» عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، ص٤٤، آية الله الشيخ جعفر السبحاني، دار الولاء، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م. وفي كونها محل إجماع الأمة الإسلامية يقول: «باعتبار كونه [العصمة في تبليغ الرسالة] أمراً متفقاً عليه بين المسلمين إلاّ من شذّ» الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني بقلم الشيخ حسن =

إذاً؛ مفهوم العصمة يعني: المعيار الذي يضمن سلامة تلقي الهداية الإلهية.

الحدود

ما مرّ كان حديثاً عن العصمة بخصوص شخص النبي ﷺ؛ مبلغ الرسالة، وهذه الجهة من البحث ليست الدراسة معقودة من أجلها، إنما نظر الدراسة متجه إلى العصمة بخصوص المجتمع المؤمن برسالة إلهية، وبعبارة أخرى: عندما ننظر للعصمة في النبي ﷺ فهنالك حدٌ أدنى يتفق عليها جميع المسلمين؛ وهي العصمة في التبليغ، وحد أعلى يشمل كل تفاصيل حركاته وسكناته ﷺ إنْ في أمور التبليغ أو غيرها. لكن عندما ننظر للعصمة؛ بما هي ضمانة للهداية على المستويين النظري والعملي، بالنسبة للمجتمع فإن البحث هنا يأخذ بعداً آخر يختلف عن سابقه اختلافاً كبيراً، إذ يمكن صياغة سؤال البحث في هذا البند بالشكل الآتي: هل العصمة في النبي

= محمد مكي العاملي، ج٢ ص١٤٦، الدار الإسلامية، بيروت. لبنان ط١، ١٩٩٠م ـ ١٤١٠هـ.

ﷺ؛ والتي هي استغراقية فيه، تلزم عصمة المؤمنين به[1]، بحيث تشكل لهم هدايةً تفصيليةً تستغرقُ كل تفاصيل حياتهم، أم أنها عصمةٌ إجماليةٌ تستوعب مجمل أفعالهم بالشكل الذي لا يخرجون فيه عن حد الهداية، أم لا هذا ولا ذاك؟ وبصياغة ثانية: هل وظيفة النبي ﷺ في الأمة أن يعصمها من الزلل بشكل تفصيلي أم إجمالي، وذلك بما يبلغه من رسالة الله سبحانه؟ وبصياغة ثالثة للمسألة: ما هي علاقة النبي ﷺ (الدين) بالمجتمع في حيثية الهداية؟ هذه الأسئلة الثلاثة وإن كانت مختلفة في الصياغة إلا أنها تحمل نفس الإشكالية وجوهرها، ونتيجة البحث فيها ستوضح حدود عصمة الدين للإنسان. وتفصيل الكلام كالآتي:

شاءت حكمة الله ـ سبحانه ـ أن يخلق الإنسان حر الإرادة والاختيار؛ بحيث يكون هو المسؤول

(١) بحث العصمة في النبي ﷺ مرتبط ببحث الحجية في أقواله وأفعاله بحيث تعتبر من أمارات الحكم الشرعي، لكن البحث هنا في عصمة المؤمنين غير ناظر لزاوية الحجية إطلاقاً.

الأول والأخير عن أفعاله كلها، فلا أحد يتحمل عن الآخر وزره أو يعطى أجرُه[1]، وفي الوقت ذاته أراد الله ـ سبحانه ـ اختبار هذه الإرادة في استجابتها لأوامره ونواهيه، وذلك بإرسال الرسل والأنبياء عليهم السلام لتتم الحجة على البشر[2]، لكن مقتضى اجتماع هذه العناصر الثلاثة (إرادة الإنسان، اختباره، إلقاء الحجة البالغة) في الحكمة الربانية استوجب عدة أمور؛ هي:

أولاً: على مستوى الحجة، استوجب أن يكون في الرسالة والبلاغ والإنذار والتبشير

---

(١) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]. ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٥]. ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: ١١].

(٢) ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [نساء: ١٦٥].

مستوىً من الوضوح لا يدع مجالاً للشك والريب والغموض فيها[1].

ثانياً: على مستوى الاختبار، استوجب أن يكون في الرسالة والبلاغ نوع من البلاء يتناسب ومستوى الاختبار، وهذا يعني أن تظل مناطق في الدين يطلب فيها الخضوع التام الذي يتنافى وطبيعة البشر المتمردة[2]، حتى يتحقق الاختبار.

---

(١) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ...﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١].

(٢) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ثالثاً: على مستوى الإرادة، استوجب أن لا يجبر أحدٌ على الهداية كما لا يجبر على الضلالة، وإلا خرج الفعل عن كونه إرادياً[1]، وبطل الثواب والعقاب.

وبهذا كان في الدين مستوى من الوضوح البالغ الذي لا يدع مجالاً للشك والريب وبه احتج الله ـ سبحانه ـ على العباد، وهذا ما نراه في المعجزة، وتذكير الدين بأحكام العقل المشتركة، والفطرة الإنسانية وغيرها، وفي الوقت ذاته كان في الدين نوع من الابتلاء؛ على مستوى الإيمان النظري بالدين، بحيث طلب فيه التسليم التام بل لو أن البشر طلبَ من الله ـ سبحانه ـ إنزال الآيات البينات الباهرات لطالبهم الله ـ سبحانه ـ بالإيمان المباشر وإلا أخذهم العذاب مباشرة ومن دون إعطائهم فرصة أخرى[2]، وهذا المستوى هو ما

---

(١) ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(٢) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

نراه في غيب[1] السماوات والأرض من الملائكة وغيرهم، وعالم البرزخ والآخرة، وكون النبي المرسل لهم بشراً مثلهم. وكما في الوقت ذاته لم يكلّف النبيُّ المبلِغُ أكثرَ من البيان والبلاغ والإنذار والتبشير بحيث تبقى المسؤولية مناطة على عاتق إرادة الإنسان في الإيمان والهداية وتطبيق الدين إن شاء آمن وإلا كفر، والله غني عن العالمين.

وبهذا البيان السابق يمكننا توضيح إشكالية البحث في هذا البند عبر النقاط الآتية:

- وظيفة النبي صلى الله عليه وآله في الهداية تتوقف على بيان الدين بمستواه الواضح والبيّن، مضافاً إلى تعليم البشر سبل التعامل مع مستجدات الحياة بما يتوافق مع تعاليم الدين، وبهذا يحقق النبي صلى الله عليه وآله على مستوى التبليغ الهداية التفصيلية من

(١) للتفصيل راجع: مناهج البيان في تفسير القرآن، آية الله الشيخ محمد باقر الملكي الميانجي، ج٤، ص١٨٩، ١٩١، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد، طهران ـ إيران، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

خلال التذكير والتبليغ والتعليم[1].

- تقع على البشر مسؤولية الاستجابة للدين والتسليم لتعاليمه، وبالتالي تطبيقه في الواقع الخارجي، وهم بقدر استعصامهم به يستعصمون من الخطأ والضلالة[2].

---

(١) في الدراسة ملحق فهرسة موضوعية لآيات القرآن الكريم التي تتحدث فيما يخص هذه النقطة بالتحديد وبعض النقاط المرتبطة بها بشكل عام، حيث قمنا باستقراء لآيات القرآن الكريم ضمن سبعة (٧) عناوين موضوعية هي: ١- صفات النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم؛ وهذا مما يساعد على فهم حقيقة النبي ﷺ. ٢- وصف الأنبياء (ع) مجتمعين؛ وهذا مما يساعد على فهم حقيقة الأنبياء (ع) الأساسية. ٣- صفات كل نبي على حدة من حيثية الرسالة. ٤- وصف رسالة كل نبي على حدة؛ وهذا مما يساعد فهم حقيقة الرسالات الإلهية وما تتميز به كل رسالة عن غيرها. ٥- وصف مهام الأنبياء (ع) مجتمعين. ٦- وصف مهام النبي محمد ﷺ على وجه الخصوص. ٧- وصف ما جاء به النبي محمد ﷺ خاصة؛ وهذا يساعد على فهم حقيقة الرسالة المحمدية.

(٢) يقول آية الله الشيخ محمد باقر الملكي الميانجي في تقرير هذه الحقيقة: «فلمّا قام الله سبحانه بإرسال الرسل وإبلاغ النّاس فعلى النّاس أن ينصروهم ويحموهم في دعوتهم، ولو كذّبوهم وجحدوهم فليس على الله أن يقعدهم على أريكة الخلافة ويسلّطهم على =

- الدين ملازم للتقدم والرقي والرفاه والحضارة،

= الناس تكويناً. وكثيراً ما تقتلهم أممهم وقد يهلك الله بعض الأمم بتكذيبهم رسلهم وقتلهم أنبيائهم، وسلب عنهم هذه النعمة الروحانية بتكذيبهم وإنكارهم اياهم. قال تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فغلبة الأشرار وتسلطهم على أولياء الله بالقتل والحبس ومنعهم الناس من الاستنارة بنور الوحي ممّا لا ريب فيها حسّاً وعياناً. والأمر كان على هذا النمط بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا اليوم. فإن الحجة بمنزلة الكعبة توتى ولا تأتي، والحجة تكون ظاهرة مشهورة وخائفة مستورة، وقد تكون مقتولة مقهورة.» مناهج البيان في تفسير القرآن، ج٤، ص١٤٦ و١٤٧، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والارشاد، طهران ـ إيران، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩ و١٠]. ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٥ ـ ١٢٦]. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. =

لكنه لا يحقق ذلك بطريقة الجبر والإكراه، بل إن تحقيق هذه الأهداف مسؤولية المؤمنين به، وأي مخالفة منهم لن تضر الله شيئاً والله غني كريم.

وبهذا تكون حدود الهداية الإلهية تفصيلية على المستوى النظري؛ وذلك بتعليم الناس جوامع الكلم في المعارف، ومقاصد الشرع في الفقه ومكارم الأخلاق في السلوك، لكن على المستوى التطبيقي تناط مسؤولية الهداية بإرادة الإنسان.

= ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۞ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٤].

خلاصة الكلام

وخلاصة الكلام في هذا البند:

١ ـ العصمة بمعنى: المعيار الذي يضمن سلامة تلقي الهداية الإلهية، مفهومٌ متجذرٌ في الوعي البشري.

٢ ـ الدين يوفر للبشرية هداية تفصيلية على المستوى النظريّ من خلال «الرسول المعلم» الذي يبيّن للناس هداهم من ضلالتهم.

٣ ـ الناس في المستوى العمليّ والواقع الخارجي يعتصمون بقدر استعصامهم بالدين؛ فيحققون على المستوى الجمعي هداية عامة، وعلى المستوى الفردي يحقق كل فرد من الأمة مفهومَ الإنسانِ «العادل»؛ وهو الذي لا يتورط بكبائر الذنوب ولا يصر على صغائرها.

٤ ـ الهداية هذه تجعل الأمة في تعاملها مع الفتن (تقلبات الزمان) مستلهمة للرشد الربّاني بعيدة عن السفه، وهذا بقدر صبرها على الاستعصام.

- أهل البيت عليهم السلام هم أدلة الحقيقة، وعلامات الهدى، فكيف يطلب بعد ذلك أدلة على هدايتهم للبشرية. نعم؛ هم كالشمس تعطي أشعتها لغيرها حتى يعرفوها.
- وراء كل دليل على وجود الله ـ سبحانه ـ وصفاته وأسمائه دليلٌ على إمامة أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم، وفضلهم، وسبقهم، وكرامتهم... لأنهم مظهرُ قدرته، وبديع خلقه.

أهل البيت عليهم السلام العصمة من الضلالة: الأساس النظري

من نافلة القول؛ التأكيد على علاقة بحث النقطتين السابقتين (مفهومَيْ الضلالة والعصمة) بالنقطة الحالية، حيث كانتا ممهدتين لتشكيل التصور الكلي المفترض في الدراسة، إذ بعد تنقيح دلالة مفردتَي «العصمة» و«الضلالة» يتشكل عندنا صورة العنوان الكلي المفترض في هذه الدراسة، وهو: أن أهل البيت عليهم السلام يشكلون للبشرية عصمةً من الضلالة، حسب ما قرر سابقاً، والخطوة المطلوبة حالياً هي: تأسيس أساس نظري - ثبوتي يؤكدُ مكانة أهل البيت عليهم السلام كأئمة ربانيين يهدوا إلى أمر الله سبحانه، وهنا يرتكز البحث على إثبات «إمامتهم» وما يلزم الإمامة من العصمة، والقيادة... بل كل مميزات ومسؤوليات النبوة عدا ما اختص به النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمقام النبوة، لأننا بإثبات هذه المكانة نكون قد

أسسنا نظرياً كونهم «عصمة من الضلالة» وذلك لكون النبي صلى الله عليه وآله ـ بلا مراء ـ عصمةٌ من الضلالة.

وقد زخرت كتب الكلام والعقائد الإمامية ببحوث واسعة مستفيضة عميقة في هذا المجال بل وأوسع من مجال البحث الحالي، بالشكل الذي يقل نظيره في أي بحث علمي من حيث وفرة الأيدي والعقول عليه، بل إن الأدلة مشهورة معروفة بالشكل الذي لا يزيد البحث فيها هنا شيئاً، مما يحدو بنا إلى تجاوز هذه النقطة، والاكتفاء بثبت المصادر اللازمة لهذا البحث[1].

(١) الفكر الإسلامي: مواجهة حضارية، السيد محمد تقي المدرسي. ألف باء الإسلام، السيد هادي المدرسي. الإمامة، الشهيد مرتضى مطهري. الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني بقلم الشيخ حسن محمد مكي العاملي.

- كان أهل البيت عليهم السلام في سلوكهم العملي وحيٌ يتحرك؛ يواجه المتغيرات، ويعيش مختلف الظروف، ويتجشم عناء أنواع المحن.. لألا يكون للناس على حجة بعد الرسل.
- كل إدعاء ـ للإيمان به ـ يحتاج إلى التحقق من إمكانه العقلي على أقل التقادير، وأهل البيت عليهم السلام في مجراهم العملي أثبتوا للعالم «الوقوع الخارجي».. لذا كانوا هم «القرآن الناطق».
- مثل النبي صلى الله عليه وآله في أمته مثل المهندس الذي يرسم الصورة، ويشرف على الأسس، ويبارك المسيرة. ومثل أهل بيتهم مثل العامل الذي يضع لبنة على الأخرى، ويرفع البنيان، ويقوّم المسيرة... فالنبي صلى الله عليه وآله قاتل على التنزيل وعلي والأئمة عليهم السلام من بعده قاتلوا على التأويل.

أهل البيت عليهم السلام العصمة من الضلالة: الواقع التطبيقي

البحث في هذه النقطة يبتغي متابعة أهل البيت عليهم السلام في أدائهم لمهام إمامتهم في الواقع الخارجي التطبيقي (الإثباتي)، للوقوف على ما قدموه للأمة لعصمتها من الضلالة، وذلك ينتج هدفين هما: إثبات كونهم عصمة من الضلالة، والاستفادة من إسهاماتهم للاستعصام بها.

وبتحديد أكثر: لما كان لأهل البيت عليهم السلام أدوارٌ واسعة في الأمة الإسلامية لعصمتها من الضلالة، كان من الضروري الوقوف عليها. وحيث أن هذه المهام كانت موزعة على مستويين عملي قيادي ميداني، وآخر ميداني لكنه في المجال الفكري والمعرفي، لزم على البحث أن ينحو هذين المنحيين.

بدءًا لا بد من التصريح أن استيعاب البحث

بكل جوانبه لا يكفيه كتاب من عدة مجلدات فضلاً عن دراسة متواضعة كما نحن فيه، وهذا يعني أن عملنا سيكون على نحو الإشارة الموجزة لبعض هذه الأدوار في المستويين، ولا ندعي في انتقاء هذه الأدوار أية أولوية معينة في ذكرها، بل الاختيار هنا شبه عشوائي؛ غرضه ثبت بعض هذه الأدوار؛ لتكون إثارة للباحثين ليشمروا عن سواعد الجدّ في البحث عنها بشكل مفصل وموسع[1].

١ ـ المستوى العملي ـ الميداني:

من نافلة القول؛ الإلفات إلى ترابط البعد العقدي ـ الفكريّ بالسلوك الإنساني، وهذا الأخير يعني في ما يعني النظام الاجتماعي بالمعنى الأعم؛ من أسرة، وجماعات، وسياسة،

(١) ما أظنه أن مشروع استيعاب أدوار أهل البيت عليهم السلام في الحضارة الإسلامية لا بد له من مؤسسة علمية متخصصة تبذل قصارى جهدها للبحث في هذا الإطار، وهذا ما يجب على مؤسسات البحث العلمي ومراكز الدراسات وكل مهتم بقضية النهضة وتجديد التراث العمل به.

واقتصاد... أي النشاط الإنسانيّ الجمعي. ولمّا كانت حركة الإنبياء عليهم السلام؛ وبالتالي حركة الأئمة عليهم السلام، حركة شمولية تستهدف الاصلاح العقدي ـ الفكري للإنسان لينبسط على مختلف مجال النشاط البشري، لَزم أن يقوم حملة الدين بهذه المهام.

وبمراجعة لمجموع آيات القرآن الكريم؛ التي تعرّفنا مهام الأنبياء والأوصياء عليهم السلام نجد هذا الدور بارزاً ومُؤَكداً عليه؛ فليست مهمة النبي صلى الله عليه وآله كمهمة الفيلسوف الذي ـ عادة ما ـ يستغرق في المجال النظري ـ الفكري البحت، ولا يهمه تربية الناس عملياً في الواقع الخارجي، بل إن دور النبي أن يقوم الناس بالقسط والميزان من خلال نظام اجتماعيّ عادل، وأن يحقق الناس كرامتهم بمقاومة كل أنواع الاستبداد، فالنبي مُزّكي، ومربّي، ومُحرّض، ومُؤَدِّب[1]... الخ.

وقد شاءت إرادة الله ـ سبحانه ـ أن يجعل

(١) قد مرّ في الهامش رقم (٢٢) إشارة لمجموع مهام الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم حسب تتبع موضوعي.

رسله وأوصياءَهم من البشر؛ بحيث يتعاطون الحياة اليومية بكل تفاصيلها وهمومها، ويقومون بأدوارهم وفق معطيات الحياة وسننها التي سنها الله ـ سبحانه ـ، وذلك ليكونوا للناس مثلاً وقدوة وأسوة وحجة، فلم تكن مشيئته ـ سبحانه ـ في نجاة قوم نوح عليه السلام من الطوفان بالطير في الهواء، بل بركوب السفينة وتجشم عناء الطوفان، كما لم تكن مشيئته ـ جل ذكره ـ في إيقاظ الأمة الإسلامية من انحرافها بعد رحيل نبيها صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى بإنزال ملائكة معهم أجراسٌ من الجنّة، بل كانت باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام ـ مثلاً ـ. فبمقتضى هذه السنّة الإلهية ـ العمل بالأسباب ـ جرى عمل أهل البيت عليهم السلام في الأمة الإسلامية. فكما أن النبي وأصياءه «معلمون» فإنهم في الوقت نفسه «قادة» وكلا المفردين تشكلان عنصريْ «الهداية».

فنجد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وبمعونة فاطمة الزهراء عليها السلام تحرك في سبيل إصلاح الأمة عملياً في مسارات متعددة،

فمن جهة بيّن للأمة سبيلها الصحيح والذي يتمثل في إمامة أهل البيت عليهم السلام وتحديداً ـ آنذاك ـ في خلافته هو للنبي صلى الله عليه وآله، حيث أنه وذريته الطاهرين هم الخيط الواصل لمسيرة الأنبياء عليهم السلام وهم الحبل الرابط بين الأرض والسماء، كما أنهم القرآن الناطق.

و**في الوقت نفسه** حافظ على كيان الأمة ووحدتها، وبذل جهده في سبيل وئد الفتن والاضطرابات، خصوصاً وأن في الأمة شعوباً لما يتأكد التدين في وجدانهم، لكن هذا الموقف المعتدل منه عليه السلام لم يسمح بالمهادنة مطلقاً على الخطوط العريضة للدين، **لذا فقد سعى** ـ عملياً ـ لتأسيس خط فكري ـ رسالي معارض، يعمل على إحداث التوازن داخل الأمة؛ والذي كانت بذرته الأولى في أمثال سلمان الفارسي (المحمدي)، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر.. وغيرهم، وكل من أفراد هذا التوجه كان يعمل بدوره الخاص في عملية الإصلاح والتغيير.

ثم وبعد أن تسلم الخلافة كان أنموذجاً فريداً

للعدالة، وبهذا شكل في وعي الأمة مقياساً ومعياراً للعمل السياسي ومفاهيم السلطة؛ بحيث كانت الأمة تحتكم بسلوكه في تقييم الوضع السياسي الجديد، على الأقل في مراحل نهضتها، وقيامها بصقل شعارات الثورات التحريرية ضد الاستبداد.

ولما استشهد عليه السلام تسلم الراية ولده الحسن عليه السلام الذي قام بدورين أساسين في أخطر مرحلة بعد فتنة الخلافة، وهي مرحلة تصاعد القوى الفاسدة المتمثلة في تيار بني أمية عسكرياً وجماهيرياً بالشكل الذي لو طويت لهم الوسادة آنذاك، لعاد الإسلام إلى منطقة الصفر بل أنزل من ذلك، لكن أدوار الإمام الحسن عليه السلام حالت بشكل كبير دون هذه النتيجة الخطرة، حيث واجه الإمام الحسن عليه السلام أعتى وأخطر شخصية آنذاك معاوية بن أبي سفيان بكل جنده وجيشه، وكان من نتائج هذه المواجهة أن فرّق الأمة سماطين اثنين؛ أحدهما: بني أمية وفكرهم الفاسد. وثانيهما: تيار الرسالة المتمثل في أهل البيت

عليهم السلام، إذ إنّ مجرد هذا التفريق بين الفريقين وتحزب كل طرف بتعبئة ساحات الأمة واستقطابها كان بمثابة «الصدمة» التي تعيد في وعي الأمة صراع قريش مع النبي صلى الله عليه وآله، فالحسن عليه السلام سليل النبي صلى الله عليه وآله في حين أن معاوية سليل أبي سفيان، وتحقق كل ذلك في الصلح (أو الهدنة) الذي قبله الحسن عليه السلام من معاوية؛ والذي كان فتحاً مبيناً كما صلح الحديبية فتحاً مبيناً لم يفهمه القرشيون آنذاك؛ بحيث كان نتيجته فتح مكة، كذلك صلح الحسن عليه السلام كانت نتيجته سقوط دولة الملك والوراثة، هذا **أولاً**.

ثانياً: قام الحسن عليه السلام بهندسة مشروع كربلاء؛ الذي يعد أكبر مشروع إحيائي للأمة، وذلك من خلال تشكيل كم من التحالفات الرسالية على مستوى القبائل والعشائر العربية من خلال المصاهرة، ناهيك عن تأسيس المشروعية السياسية لثورة الإمام الحسين عليه السلام، من جهة أخرى عمل عليه السلام على تأسيس الخط الرسالي الذي قاد في المستقبل وبعد استشهاد الإمام

الحسين عليه السلام مسلسل الحركات العسكرية التحريرية ضد دولة بني أمية مما أثمر سقوطها بعد فترة من الزمن.

أما سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام فليس في الحديث عن دوره المشرق والباهر من غموض كبير، إذ يكفي في دوره البارز في كربلاء وحدة الرأي والإجماع من الأمة على أحقيّته وتساميه بالشكل الذي أعاد الروح للجسد الإسلامي بعد تضليل مميت من قبل أجهزة بني أمية.

أما الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام فإنه مع الإمام الباقر والصادق عليهما السلام يشتركون في مشروع كلي ظاهري، ويتمايزون بأدوار جزئية مختصة بكل منهم على حِدا حسب ما تمليه عليهم الظروف. **هذا المشروع الكلي كان يرتكز على: عدم المواجهة المباشرة مع الدولة؛ للحيلولة دون الوقوع في شرك التهمة السياسية المباشرة التي تقضي على حياتهم، لكن في الوقت نفسه يعملون على إدارة وتوجيه**

منظمات العمل الجهادي الثوري التحريري ضد بني أمية؛ التي قادها أولاد الحسن عليه السلام، وزيد بن علي عليه السلام، والإسماعيليون، وغيرهم.

أما ما اختص به الإمام زين العابدين عليه السلام فهو في جملة من الأبعاد الأخلاقية والروحية، وذلك من خلال أسلوب الدعاء والمناجاة؛ الذي ينساب إلى القلب موقظاً الضمائر الميتة، بل إن للإمام عليه السلام دوراً كبيراً في عموم الحياة الروحية في الإسلام حتى أن تيارات الزهد والتصوف ـ في إطارها الروحي والأخلاقي لا الفلسفي المنحرف ـ تعتبره ملهمها الأول.

هذا في الوقت الذي أملت الظروف الموضوعية سيراً آخر على الإمام الباقر عليه السلام تشابه كثيراً مع دور الإمام الصادق عليه السلام وذلك لتشابه الظروف في عصريهما؛ أي ضعف الدولة الأموية، ومن ثم انهيارها، وقيام العباسيين على سدة الخلافة، وهذا يقتضي نوعاً من الانشغال السياسي للنخبة الحاكمة بغية تثبيت قواعد الحكم، مما يتيح للمجتمع الأهلي ـ الشعبي

ممارسة مجموعة من الأمور غير متوفرة في ظرف آخر.

وهذا السير الذي نحاه الإمام الباقر والصادق عليهما السلام ـ مضافاً لما سبق ذكره في العنصر المشترك بين الأئمة الثلاثة عليهم السلام ـ كان منصباً في عمليات البناء العلمي للشخصيات التي ستؤدي دوراً كبيراً في العالم الإسلامي بشكل عام وفي المدرسة الإمامية بشكل خاص بل يمكن القول: إن للإمامين عليهما السلام دوراً مهمّاً في الحفاظ على الإطار الشيعي من أن يتحول إلى حركة باطنية غامضة تنمو في الظلام؛ بحيث تكون محلاً للأفكار الغريبة كما حدث للكثير من الفرق الإسلامية التي انهزمت سياسياً واجتماعياً واستتبعها انهزام فكري جعلها تأوي إلى كهوف وجبال وصحاري انتهت بهم إلى مسخ جديد لا يَعرف من الإسلام إلا شعاره وشعائره، **وهذا الإنجاز كان بفضل زج الشيعة في المجتمع العام متسلحين بكل أدوات النقاش والحوار العلمي، مملوئي الثقة بذواتهم وانتماءاتهم، منفتحين على كل أطياف المجتمع وتياراته، وهذا يبدو واضحاً**

لمن راجع حقول العلم المختلفة في الحضارة الإسلامية ليجد في كل حقل منها إسهاماً شيعياً يحظى بنصيب الأسد فيها لا مجرد إسهامٍ جزئيٍ عاديٍ[1].

وهنا يتجلى دور الإمام موسى الكاظم عليه السلام؛ الذي جدد الزخم الروحي والحضاري في التشيع مع أنه عليه السلام كان محاصراً محاصرةً شديدة بل إن سبب محاصرته كانت ملاحظة السلطة الحاكمة آنذاك هذا الدور الخطير الذي يهدد كيانها ووجودها، وبعبارة أخرى: لمّا كان الشيع في مجراه العملي حركة تصحيحية في الداخل الإسلامي تحاول جاهدة إعادة الأمور إلى نصابه كان عمل الإمام عليه السلام يمثل الفكر المعارض والمهدد لكيان الدولة؛ فكان لزاماً على السلطة قمع كل محاولة في هذا الاتجاه، ولأنه الإمام عليه السلام تميز بهذا الدور في تلك الفترة فقد قال

(١) راجع في ذلك مفصلاً كتاب: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، آية الله السيد حسن الصدر، دار الرائد العربي، بيروت ـ لبنان، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

لهارون العباسي حين سأله أنت الذي تبايع الناس سراً؟ فقال له الإمام عليه السلام: أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم[1]. فعمد على محاصرته والتضييق عليه، والمهم من كل ذلك: أن الإمام عليه السلام عمل على تنمية الوعي السياسي في الأمة آنذاك، واستطاع اختراق أجهزة الدولة بعناصر الشيعة، وحين استشهاده بتلك الطريقة المأساوية ازداد الناس إقبالاً على التشيع (الفكر الصحيح في الأمة) بالشكل الذي اضطر المأمون العباسي لتعيين الإمام الرضا عليه السلام ولياً للعهد حتى يمتص هيجان هذه الفورة الشيعية.

وهنا جاء الإمام الرضا عليه السلام مكملاً وفاتحاً لمرحلة جديدة للحركة الشيعية. فبعد أن تنامى الإقبال الجماهيري على التشيع بحيث أصبح قوة ضاربة في المجتمع الإسلامي آنذاك نقل الإمام

(١) التاريخ الإسلامي دروس وعبر، ص ٢١٨٢١٧، المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، دار نشر المدرسي للطباعة والنشر، طهران ـ إيران، ط٥، ١٩٩٧م ـ ١٤١٨هـ.

الرضا عليه السلام الحالة الشيعية من السرّية إلى العلنية الظاهرة؛ بحيث صاروا جزءًا غير منبوذ بل ومتقاطع مع الجهاز الحاكم، مما وفّر فرصة جيدة جداً لبثّ ونشر الفكر الصحيح في الأمة، ولم يألُ الشيعة جهداً في هذا الإطار حتى بثوا علومهم التي كانت بتوجيه من الإمام عليه السلام - في الأمة لتصحيح مسارها، وهنا انقلب السّحر على السّاحر، فقد أراد المأمون بولاية العهد تحجيم التحرك الشيعي - الرسالي وإذا به يقفز قفزات على المستوى الاجتماعي - السياسي بالشكل الذي يخرج عن نطاق السيطرة. وهذا كله بفضل الإمام عليه السلام.

وهذا العمل منه عليه السلام يأتي في سياق توريث رسالة الأنبياء عليهم السلام بيد ثلة من المؤمنين الذين يحملون لواءها لنقلها للأجيال القادمة. وليس هذا بالعمل القليل، أليس عمل رسول الله صلى الله عليه وآله تزكية الناس وتعليمهم؟ أليس هذا إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين لتنعم البشرية من بعده بالهدى وتصل إلى الفلاح؟ وهذا عين ما فعله الإمام عليه السلام. لذا نرى

أن مرحلة ما بعد الإمام عليه السلام؛ أي فترة الأئمة الأربعة من بعده، كانت تتمتع بهدوء سياسي أمنيّ نسبي بالنسبة للتشيع، وذلك لأنه أصبح جزءًا حقيقياً من المجتمع بالشكل الذي من العصب مواجهته بطريقة المجازر الجماعية العلنية، نعم كانت هنالك موجات بين الحين والآخر من التضييق والإرهاب لكنها ليست كسابقتها.

ولهذا فإن الأئمة الذين تلوا الإمام الرضا عليه السلام كانوا يشتركون في دور مشترك يساهم كل إمام منهم عليهم السلام بما تمليه الظروف وتتطلبه الحاجة، وهذا الدور يتمثل في: **أولاً**: تنمية الحالة الشيعية وبعثها في الأقطار الإسلامية. **ثانياً**: التأسيس للمؤسسة الدينية المرجعية تمهيداً لعصر الغيبة؛ وهو العصر الذي يغيب فيها الإمام عجل الله فرجه الشريف ليقوم الناس بالقسط، وذلك وفق نظام المرجعية الدينية الذي يختزن مجموع الأبعاد الدينية ـ العلمية ـ السياسية ـ الإدارية للأمة.

وبعبارة أخرى: **لمّا وصل حال الحركة الرسالية (الفكر الصحيح والتحرك الرشيد) من**

النضج الفكري والنمو الجماهيري كان بحاجة إلى إطارٍ مؤسسي يحافظ استمراريته في الأمة لترشيدها وتقويمها، فعمل الأئمة عليهم السلام على تأسيس النظام المرجعي الديني (المؤسسة الدينية)، وذلك من خلال نظام الوكلاء الذين يقومون بالفتيا، وإدارة التجمع الرسالي، واستلام الحقوق، وتربية الأجيال. كل ذلك تمهيداً لعصر الغيبة؛ بحيث يكون للناس منهجاً فكرياً وعملياً لعصمتهم من الضلالة في تعاطيهم مع مستجدات الحياة[1].

٢ ـ المستوى الفكري ـ المعرفي.

من مهام النبي صلى الله عليه وآله تعليم الناس الرسالة[2]، إذ لم يكتفِ الله ـ سبحانه ـ بكتاب من دون «رسول

---

(١) لمعرفة تفاصيل تحركات الأئمة الأربعة بعد الإمام الرضا عليهم السلام يمكن مراجعة: النبي وأهل بيته عليهم السلام قدوة وأسوة، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرّسي، دار الكلمة الطيبة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٣م ـ ١٤١٤هـ. والتاريخ الإسلامي دروس وعبر، مصدر سابق.

(٢) راجع ملحق الدراسة تحت عنوان مهام النبي صلى الله عليه وآله تجد ثلاثة أطر للتعليم هي: تعليم الكتاب، والحكمة، وما لم يكونوا يعلمون.

معلم»، وهذا الإجراء ضمانة للاستقامة؛ لأنه توضيح للمنهج الذي لا بد من السير على أساسه لبلوغ الهداية، وإليه الملتجأ لفصل الخلافات.

ولأن أهل البيت عليهم السلام كانوا الامتداد الصحيح لمسيرة النبي صلى الله عليه وآله فإنهم بدورهم قاموا بجميع مهامه وأدواره في الأمة، بل إن جزءًا كبيراً من مسؤولية التعليم كانت ملقاة على عاتقهم عليهم السلام؛ إذ كانت مرحلة النبي صلى الله عليه وآله التأسيس للمجتمع الإسلامي بصورته الكلية العامة، ثم إناطة دور التفصيل؛ المُمثِل للكمال والإتمام والخاتمية[1] للدين، لأهل البيت عليهم السلام.

ويمكننا في هذا الإطار الإشارة إلى مجالين من عمل الأئمة عليهم السلام والحديث عن أحدهما:

الأول: ينصب في عمليات بناء المجتمع العلمي[2]؛ الذي ستُناط بيده - في المستقبل -

---

(١) سورة المائدة: ٣. سورة الرعد: ٧.

(٢) يفرق العلامة الميرزا مهدي الأصفهاني بين دور التعليم والفتيا في مهام الأنبياء والأئمة عليهم السلام، حيث إن الأولى مختصة بفئة معينة يتم الحديث معهم بلغة خاصة ومستوىً خاص أيضاً، في حين أن الثانية تشمل عامة الناس لهذا السبب فهي ذات لغة خاصة ومستوى =

مهام وراثة الدين وتبليغه وتعليمه.

الثاني: ينصب في عمليات الهدم للأفكار الباطلة التي كانت تخترق الإطار الإسلامي؛ وذلك أمثال الفرق المنحرفة كالغلاة، والقدرية، والجبرية، والصوفية. وغيرها مما يساهم في عمليات التضليل.

وما سنتحدث عنه هو المجال الأول تاركين المجال الثاني لفرصة أخرى[1]، وإليك بعض التفصيل فيه:

انتقال الشريعة، أيّ شريعة، من مرحلة التبليغ الأولى ضمن ظروف المجتمع الذي ولدت فيه إلى مرحلة الاستمرار يجعلها في مواجهة تحديات

= خاص، والمرويّ عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام في خطاباتهم وأفعالهم يشمل البعدين، ولا بد الفقيه الحاذق التفريق بينهما لأن لكل منها بعداً خاصاً في الحجيّة لا ينالها الثاني، ولهذه النكتة تفريعات مهمة ومتعددة على مستوى المعارف والفقه.

(١) للتفصيل راجع: العرفان الإسلامي؛ بين نظريات البشر وبصائر الوحي، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، دار البيان العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٩٩٢م ـ ١٤١٢هـ.

التغيير والتجدد التي تطرأ على الأشياء طبقاً لسنّة الله ـ سبحانه ـ في العالمين، وما لم يكن في الشريعة عوامل الاستمرار والدوام فإنها في أول مواجهة ستنهار ويتخلى عنها أصحابها؛ لعدم إمكانية الاستمرار فيها. وفي عملية الاستمرار هذه لا بد من الموازنة بين ثوابت الشريعة ومتغيراتها وإلا فإن التغيير الذي سيحصل في الشريعة لن يكون تجدداً مع مقتضيات الظروف بل انحرافاً وتحريفاً لهوية الشريعة نفسها.

والسؤال هنا: كيف يمكن لأي شريعة أن تجمع هذه المعادلة الصعبة؟

والذي يبدو أن الحديث هنا يتشعب إلى منحيين أحدهما: اجتماعي ـ سياسي قد مرّ الحديث عنه بالنسبة للدين الإسلامي في الفقرات السابقة، وكيف أن أهل البيت عليهم السلام كانوا عصمة للأمة في هذا الإطار.

بيد أن تلك كانت إطلالة خاطفة على الممارسة السياسية وهي التي تعالج قضايا ذلك العصر، وسلوك الأئمة عليهم السلام سواء في السياسي

أو التعليمي منه، الذي يراعي زمنين مختلفين أولهما الزمان المعاصر لحياتهم الشريفة، والثاني المستقبل بآفاقه الممتدة. وهنا نلحظ تأسيسهم عليهم السلام للاجتماع السياسي الخاص في أطره القيادية والمالية والقضائية ـ بحيث تشكل الجماعة المؤمنة كياناً يحظى بمقومات التمايز والاستقلال النسبي بحيث لا ينقطع عن بحر الأمة، فالجماعة مؤسسة لتصبح شاهدة تقوم بعملية التصحيح دون أن تفقد مقومات سلامة المسير.

واعتماداً على مسألتين سنكتفي بهذه الإشارة، الأولى الاختصار، والثانية أن التأسيس دمج بين التعلمية والقيادية، إذ إن شرط الأهلية في النخبة القيادية مع التقوى هو العلم.

أما ثانيهما: ثقافي ـ علمي؛ وفي هذا الإطار تبقى المسألة المهمة والأساسية هي «المنهج» الذي يحقق عملية التوازن المطلوبة.

وقد عمل أهل البيت عليهم السلام على تأسيس هذا «المنهج» ورعايته منذ بواكير الرسالة، وذلك من خلال تأسيس مجتمع علمي يمتلك الأدوات التي

تؤهله للقيام بعملية الفهم لبضائر الوحي، واستنباط الرؤى والهدى لوقائع الحياة المتغيرة، ولنا هنا أن نشير إلى مجموعة إجراءات قام بها الأئمة عليهم السلام، وهي الآتية:

ـ من اللحظة الأولى ومدرسة أهل البيت عليهم السلام تؤكد في الأمة أنهم (أهل بيت الرسالة) الامتداد الطبيعي للنبوة؛ فهم الخلفاء والأوصياء وورثة العلم وخاصته وخيرته، وهذا يعني فيما يعني أنهم ليسوا «بدعةً» ولا «ابتداع» في الدين بل هم استمرار وصلة، وقد تجسد هذا في أمرين واضحين هما:

أ ـ التأكيد على مرجعية القرآن الكريم، باعتباره الحبل المتين، والثقل الأكبر، وأن ما عندهم من القرآن، وهم المفسرون والمؤولون والعلماء وأهل الذكر والأحبار لا غيرهم من أدعياء الأمة، وهذا جوهر إمامتهم؛ مَن قَبِلها نجا ومن تخلف عنها هلك وغوى.

ب ـ التأكيد على مرجعية سنّة النبي صلى الله عليه وآله، وأنها

محفوظة عندهم لا عند غيرهم؛ إذ هم خاصته وعيبة علمه ومَن أودعهم سرّه[1].

يقول الامام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي: «يا جابر، إنا لوكنّا نحدّثكم برأينا وهوانا لَكنا من الهالكين، **ولكن نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم**»[2].

كما جاء في كتاب البصائر: «عن محمد بن مسلم قال: قال: أبو جعفر (الباقر) - صلوات الله عليه - أن رسول الله صلى الله عليه وآله أنال في الناس وأنال، **وعندنا عُرى العلم وأبواب الحكم، ومعاقل العلم، وضياء الأمر وأواخيه فمن عرفنا نفعته معرفته وقُبل منه عمله، ومن لم يعرفنا لم ينفعه الله بمعرفة ما علم ولم يقبل منه عمله**»[3].

---

(١) لعل هذا ما يفسر التفاوت الكمي والكيفي في الحديث (السُنة) بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام والمدارس الأخرى، فإننا نجد غنىً ووفرة لا نجدها عند غيرهم.

(٢) جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجرْدي، ج١، ص ١٤، المطبعة العلمية. قم، ط١٣٩٩هـ.

(٣) الاختصاص، الشيخ المفيد، ص٣٠٩، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٣م ـ ١٤١٤هـ.

وعن المحاسن مسنداً عن جابر قال: قلت: لأبي جعفر(الإمام الباقر) ـ عليه السلام ـ: كيف اختلف أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في المسح على الخفين؟ فقال: «كان الرجل منهم يسمع من النبي الحديث فيغيب عن الناسخ ولايعرفه، فإذا أنكر ما خالف ما في يديه كبر عليه تركه، وقد كان الشيء ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فعمل به زماناً، ثم بغيره، فيأمر به أصحابه وأمّته، حتى قال الناس: يا رسول الله، إنك تأمرنا حتى إذا اعتدناه وجرينا عليه، أمرتنا بغيره فسكت النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ عنهم فأنزل عليه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾»[1] **وفي هذا دليل على حصر معرفة السنة ناسخها من منسوخها بهم عليهم السلام**، وتعريض بالغير.

ـ رعاية ثلّة من الخُلّص رعايةً علميةً تمكنهم

(١) المحاسن، أحمد البرقي، ج٢، ص٢٩٩، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ط١، ١٣٧٠ش.

وتملكهم أدوات فهم الدين[1]، وذلك في جوانب الدين المتعددة، ابتداءً من العقائد إلى الفقه، ولنا هنا عدة نماذج من وسائل التعليم، نحاول من خلال استجلائها هذه الحقيقة، وذلك من خلال أمثلة بسيطة في أهم الحقول المعرفية في الدين الإسلامي:

أ - **في مجال القرآن الكريم:** عرّف أهل البيت عليهم السلام أصحابهم طرق فهم القرآن الكريم، وذلك أنهم بيّنوا لهم أن للقرآن ظاهراً وباطناً، ومحكمًا ومتشابهاً، وأنه نزّل على أحرف سبعة، وكيفية التفسير الموضوعي، والتأويل. وإليك شواهد ذلك:

١ - **الظاهر والباطن:** في الحديث «أن رجلاً قال: سألت الإمام عما يعنيه بقوله: للقرآن ظهر وبطن؟ قال: ظهره تنزيله

(١) وقد رأينا في فقرة (المستوى المعلي الميداني) كيف أنهم بدءًا من أواخر الأئمة عليهم السلام قاموا بتمهيد الأمة لعصر الغيبة من خلال الإحالات إلى الثقات من العلماء.

وبطنه تأويله منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد يجري كما يجري الشمس والقمر كلما جاء منه شيء وقع»[1].

وفي رواية أخرى: «إن رجلاً قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن، فأجابني، ثم سألته فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك، كنت أجبت في هذه المسألة بجواب آخر غير هذا قبل اليوم، فقال لي: يا جابر، إن للقرآن بطناً وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً»[2].

٢ ـ **المحكم والمتشابه**: «عن الإمام الصادق عليه السلام: أن القرآن فيه محكم ومتشابه، فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين به، وأما المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به»[3].

---

(١) بحوث في القرآن الحكيم، آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، ص٢٤، دار محبي الحسين عليه السلام، طهران ـ إيران، ط١، ٢٠٠٠م ـ ١٤٢٠هـ.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦.

٣ ـ **توحيد قراءة القرآن**: فالأحرف السبعة: «جاء في الحديث: إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على سبعة أقسام؛ كل قسم منها كافٍ شافٍ وهي: أمر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، ومثل، وقصص»[١].

فالحجية هي للقراءة المشهورة المعروفة ـ أي قراءة حفص ـ وعدم تعيين المشهور منها عند بعض الفقهاء لا يعني قبول التعدد، فالحال حينها لدى تعارض المشهور منها الإجمال.

٤ ـ **التفسير الموضوعي**: ونجده في مثل رواية جنود العقل والجهل التي رواها هشام بن الحكم عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إن الله ـ تبارك وتعالى ـ بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. يا هشام بن الحكم، إن الله ـ عز وجل ـ

(١) المصدر نفسه: ٢٨.

أكمل للناس الحجج بالعقول وأفضى إليهم بالبيان ودلهم على ربوبيته بالإدلاء، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يا هشام، قد جعل الله ـ عز وجل ـ ذلك دليلاً على معرفته بأن لهم مدبراً، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. وقال: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يا هشام، ثم وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. وقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يا هشام، ثم خوّف الذين لا يعقلون عذابه فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يا هشام، ثم بين أن العقل مع العلم فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

يا هشام، ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم ذم الكثرة فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

يا هشام، ثم مدح القلة فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

يا هشام، ثم ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية، فقال: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

يا هشام، إن الله يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾. **يعني العقل**. وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال: **الفهم والعقل**...»[1].

ب ـ **في مجال أصول الفقه**: لمّا كان علم أصول الفقه منطقُ الفقه ومنهجُه الذي من خلاله يستنبط الفقيه الأحكام الفرعية أولى الأئمة

(١) راجع: تحف العقول، ابن شعبة البحراني، ص٤٠٠، ط٢، ١٤٠٤هـ، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، تحقيق: علي أكبر غفاري.

عليهم السلام هذا العلم اهتماماً جيداً، فقد علّموا أصحابهم قواعد هذا المنهج وطرقه، ويشهد لهذا ـ مضافاً لما سنتلوه من شواهد تاريخية ـ تقدم الإمامية في التصنيف والتأليف في هذا العلم، فهذا يونس بن عبد الرحمن (ت ٢٠٨هـ، ٨٣٢م) قد كتب كتاباً في التعادل والتراجيح اسمه «اختلاف الحديث ومسائله»، وأبو سهل النوبختي إسماعيل بن علي [٢٣٧ ـ ٣١١هـ، ٨٥٢ ـ ٩٢٣م] قد كتب كتاباً في مباحث الألفاظ اسمه «الخصوص والعموم» «الأسماء والأحكام» كما في مباحث الحجة حيث كتب «إبطال القياس»، والحسن بن موسى النوبختي كتب كتباً في مباحث الحجة اسمه «خبر الواحد والعمل به»[1]. أما ما يشهد على طرق تعليم الأئمة عليهم السلام لأصحابه قواعد هذا العلم فمنها:

(١) الوسيط في أصول الفقه، آية الله الشيخ جعفر السبحاني، ج١، ص١٢، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم ـ إيران، ط١، ١٤٢٢هـ.

١ ـ **مباحث الألفاظ**[١]: نرى في هذا الحقل كيف أنهم عليهم السلام علّموا أصحابهم طرق البلاغ الإلهي، وكيفية استفادة الأحكام منه، فقد رُوي عن زرارة ومحمد بن مسلم أنّهما قالا: قلنا لأبي جعفر عليه السلام ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي وكم هي؟ قال: إن الله عز و جل يقول ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ صار التقصير في السفر واجباً كوجوب

(١) هنالك عدة تقسمات لمباحث علم أصول الفقه كل تقسيم لاحظ بعداً ما في تقسيمه، لكن التقسيم الأكثر رواجاً هو الآتي: ١- مباحث الألفاظ؛ والتي يبحث فيها عن صغريات أصل الظهور. ٢- الأدلة العقلية؛ المستقلة وغير المستقلة، والتي يبحث فيها عن بعض الأمور الفقهية التي يكون في مقدماته دليل عقلي أو في كلا مقدماتها. ٣- مباحث الحجة، والذي يبحث فيه عن حجية الأدلة الشرعية من القطع والدليل الظني. ٤- الأصول العملية، والتي يبحث فيها عن قاعدة تحديد وظيفة المكلف حين فقد الدليل الشرعي الاجتهادي. ٥- التعادل والتراجيح، والتي يبحث فيها عن كيفية العمل في حال تعارض مطلق الأدلة الشرعية.

التمام في الحضر قالا: قلنا: إنما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ولم يقل افعلوا فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال عليه السلام: أوليس قد قال ـ عز وجل ـ في الصفا والمروة: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ألا ترون أن الطواف بهما واجبٌ مفروضٌ لأن الله ـ عز و جل ـ ذكره في كتابه وصنعه نبيه وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي وذكره الله في كتابه... الحديث[1].

٢ ـ **مباحث الحجة**: في إبطال القياس نرى الإمام عليه السلام يعلم أبان بن تغلب، وهو فقيه من فقهاء الشيعة، عدم حجية هذا الطريق في البحث الفقهي: فقد «رُوي عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في رجل قطع إصبعاً

(١) الأصول الأصلية، السيد عبدالله شبّر، ص٥٣، مكتبة المفيد، قم ـ إيران، ١٤٠٤هـ.

من أصابع المرأة كم فيها؟ قال: عشر من الإبل قلت: قطع اثنين قال: عشرون، قلت: قطع ثلاثاً قال: ثلاثون، قلت: قطع أربعاً قال: عشرون، قلت: سبحان الله يقطع ثلاثاً فيكون عليه ثلاثون ويقطع أربعاً فيكون عليه عشرون إن هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق فنبرأ ممن قاله ونقول: الذي جاء به شيطان فقال: مهلاً يا أبان، هذا حكم رسول صلى الله عليه وآله إن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية فإذا بلغت الثلث رجعت إلى النصف، يا أبان، إنك أخذتني بالقياس والسنّة إذا قيست محق الدين»[1].

٣ ـ **الأصول العملية**: وهي الأصول التي تؤسس القواعد التي يرجع إليها في حال فقد الدليل الشرعي الاجتهادي (الكاشف)، وهي من أهم حقول المنهج الأصولي التي تساعد الفقيه في

(١) الكافي، العلامة الكليني، ج٧، ص٣٠٠.

التعامل مع المتغيرات بحيث لا يقع في مشاكل الذوق الخاص والرأي بلا دليل، ولنا هنا ثلاثة أمثلة لثلاثة أصول هي: البراءة، والاحتياط، والاستصحاب.

فمما ورد في تعليم **البراءة** ما رواه مسعدة بن صدقة: «**كل شيء لك حلال حتى تعلم أنه حرام بعينه فتدعه من قبل نفسك، وذلك مثل الثوب يكون عليك ولعله سرقة، أو العبد يكون عندك لعله حرّ قد باع نفسه، أو قُهر فبيع، أو خُدع فبيع، أو امرأة تحتك وهي أختك أو رضيعتك، والأشياء كلها على هذا حتى يستبين لك غير هذا أو تقوم به البينة**»[1].

أما ما ورد في **الاحتياط**: فصحيحة عبد الرحمن بن الحجاج «قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن رجلين أصابا صيداً وهما محرمان، الجزاء بينهما أو على كل واحد منها جزاءً؟! قال: بل عليهما أن يجزي كل واحد منهما الصيد. فقلت: إن بعض أصحابنا سألني عن ذلك فلم أدر

(١) فرائد الأصول، الشيخ مرتضى الأنصاري، ج٢، ص١٢٠، مجمع الفكر الإسلامي، قم ـ إيران، ط٣، ١٤٢٣هـ.

ما عليه. قال عليه السلام: إذا أُصبتم بمثل هذا ولم تدروا فعليكم **الاحتياط** حتى تسألوا عنه وتعلموا»[1].

أما ما ورد في **الاستصحاب**: فصحيحة زرارة «قال: قلت له الرجل ينام وهو على وضوء أيوجب الخفقة والخفقتان عليه الوضوء. قال عليه السلام: يا زرارة، قد تنام العين ولا ينام القلب والأذن فإذا نامت العين والأذن فقد وجب الوضوء. قلت: فإن حُرّك في جنبه شيء وهو لا يعلم. قال: لا حتى يستيقن أنه قد نام حتى يجيء من ذلك أمرٌ بيّن، وإلا فإنه على يقين من وضوئه، **ولا ينقض اليقين أبداً بالشك ولكن ينقضه بيقين آخر**»[2].

٤ ـ **التعادل والتراجيح**: وهو مجال تعارض الأدلة، وبالذات الأحاديث الشريفة، وتحديد المنهج في التعاطي معها تعد مسألة بالغة الأهمية، وقد علّم أهل

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص٧٦.
(٢) المصدر نفسه: ج٣، ص٥٥.

البيت عليهم السلام أصحابهم مجموعة من الطرق، ويكفينا هنا شاهدٌ واحدٌ، فقد روى في الاحتجاج عن الحميري «حيث كتب إلى الصاحب عجل الله تعالى فرجه الشريف: سألني بعض الفقهاء عن المصلي إذا قام من التشهد الأول إلى الركعة الثالثة هل يجب عليه أن يكبر فإن بعض أصحابنا قال لا يجب عليه تكبيرة ويجوز أن يقول: بحول الله وقوته أقوم وأقعد.

الجواب: في ذلك حديثان: أما أحدهما فإنه إذا انتقل عن حالة إلى أخرى فعليه التكبير، وأما الحديث الآخر فإنه روي أنه إذا رفع رأسه من السجدة الثانية وكبر ثم جلس ثم قام فليس عليه في القيام بعد القعود تكبير، والتشهد الأول يجري هذا المجرى. **وبأيهما أخذت من باب التسليم كان صواباً**... الخبر[1].

وقد استفاد الشيخ الأنصاري من هذه الحادث أنها كانت لغرض «**تعليم طريق العمل عند**

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص١٦٦.

التعارض مع عدم وجوب التكبير عنده في الواقع وليس فيه الإغراء بالجهل»[1].

ت ـ **في مجال الفقه**: وهو الفرع الأهّم الذي يميّز الحلال عن الحرام؛ أي ينظّم المجتمع قانونياً كما ينظّم الفرد سلوكياً. وقد قدّم أهل البيت عليهم السلام عطاءات واسعة جداً في هذا المجال، إذ أن أئمة المذاهب الكبرى في الإسلام ما كانوا إلا تلامذةً عندهم عليهم السلام بل إن عناصر الإضاءة والأصالة الموجودة عند فقه المذاهب الأخرى يستمدّ جذوره من فقه أهل البيت عليهم السلام، **ويكفي أن أهم منسك من مناسك المسلمين وهو الحج كان عرضة للاختلال والضياع لكن الإمام الصادق عليه السلام حافظ عليه من ذلك؛ وهذه الحقيقة تتجلى عندما نعرف أن الراوي الوحيد لمناسك الحج كما أداها النبي صلى الله عليه وآله**

(١) المصدر السابق نفسه.

في كتب الأحاديث هو الإمام الصادق عليه السلام[1].

أما ما يشهد على طرق تعليم الأئمة عليهم السلام لأصحابهم قواعد هذا العلم **فمنها**: جاء في الحديث المسند في البصائر عن موسى بن بكير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: الرجل يغمى عليه اليوم واليومين أو أكثر من ذلك كم صلاته؟ فقال: «**ألا أخبرك بما ينتظم هذا وأشباهه؟** فقال عليه السلام: كلما غلب اللهُ عليه من أمر فالله أعذر بعبده، **وهذا من الأبواب التي يَفتح كل باب منها ألف باب**». وهذا شاهدٌ واحد؛ وفي هذا الباب لا تعدم الشواهد بل هي من الكثرة بمكان.

خلاصة الكلام: المنهج ضرورة لحفاظ استمرارية الدين، وهذا لا يكون إلا بحَمَلة له، وقد سعى أهل البيت عليهم السلام؛ كما هي سيرة

(١) الحجّ في الشريعة الإسلامية، آية الله الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم ـ إيران.

الأنبياء عليهم السلام، لتأسيس هذه المجتمع العلمي من خلال الرعاية والتعليم.

بيّن أهل البيت عليهم السلام للأمة افتقارها لهم، وأن ليس للأمة من سبيل إلا هم، وبالذات فيما نحن فيه ـ المستوى الفكري ـ المعرفيّ، وذلك من خلال المنابر العامة في المجتمع، حيث نجد منذ رحيل النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام هو المرجع الفعليّ للأمة، فإذا ما أشكلت عليهم الأمور التجؤوا إليه، وهذا ليس على مستوى عامة النّاس فحسب بل على مستوى الخلفاء وكبار الصحابة، ومن لهم شيء من الفضل آنذاك. وهذه الحقيقة تتجلى أكثر وبصورة لا تدع مجالاً للشك بعد عصر الخلفاء وانتهاء الأجيال الأولى من الصحابة، حيث نجد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنهما كانا المرجع الفعليّ والواقعي، بل إن تأسيس مجموع الأنظمة المعرفية في الحضارة الإسلامية كانت لهما فيه اليد الطولى تأسيساً، وبلورةً، وتطويراً، فهذا أبو حنيفة النعمان، ومالك، وغيرهما من فقهاء الإسلام وفلاسفتهم،

ومتكلميهم، ونحاتهم، ولغويهم، وكميائييهم.. الخ، . ما كانوا إلا تلامذة عند الأئمة عليهم السلام.

ويشهد لذلك مناظرات الإمام الرضا عليه السلام مع أصحاب الفرق والمذاهب والأديان، كما مجلس الإمام الجواد عليه السلام الذي بُحثت فيه مئات المسائل. ومن بعدهم باقي الأئمة عليهم السلام.

ويشهد لبيان الأئمة عليهم السلام حاجةُ الناس لهم وعدم قدرتهم على السير من دونهم، عدة أمور؛ **منها**: مناظرة الإمام الصادق عليه السلام مع أبي حنيفة النعمان، مؤسس المذهب الحنفي، وأبو قتادة، حيث أكد لهما الإمام عليه السلام أن المنهج الصحيح هو عندهم عليهم السلام لا عند غيرهم، وفي هذا إلقاء للحجة وبلاغ للنّاس للطريق الذي عليهم اتخاذه. فقد روى زيد الشحام، قال: «دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة، أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال: أبوجعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسر القرآن، فقال له قتادة: نعم، فقال له أبوجعفر عليه السلام: بعلم تُفسره أم بجهل؟ قال: لا بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت،

وأنا أسألك، قال قتادة: سَلْ، قال عليه السلام: أخبرني عن قول الله - عز وجل - في سبإ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال، يريد هذا البيت كان آمناً حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك الله يا قتادة، هل تعلم أنه قد يخرج الرّجل من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته، ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبوجعفر عليه السلام: **ويحك يا قتادة، إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد أخذته من الرّجال فقد هلكت وأهلكت**»[1].

يقول ابن جميع: «دخلتُ على جعفر بن محمد، أنا وابن أبي ليلى، وأبو حنيفة، فقال لابن أبي ليلى: من هذا معك؟ قال: هذا رجل له

(١) منتهى الدراية في شرح الكفاية، آية الله السيد محمد جعفر الجزائري المروج، ج٤، ص٢٨٩ ـ ٢٩٠، دار الكتاب الجزائري، قم ـ إيران، ١٤٢٥هـ.

بصر ونفاذ في أمر الدين. قال: لعله يقيس أمر الدين برأيه، - إلى أن يقول والحديث طويل نقتصر منه على موضع الحاجة -: يا نعمان، حدثني أبي عن جدي: أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال اللّه تعالى له: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، فمن قاس الدين برأيه قرنه اللّه ـ تعالى ـ يوم القيامة بإبليس، لأنه اتبعه بالقياس.

ثم قال له (لأبي حنيفة) جعفرُ - كما في رواية ابن شبرمة -: أيهما أعظم: قتل النّفس أوالزنى؟ قال: قتل النّفس. قال: فإن اللّه ـ عز وجل ـ قبل في قتل النّفس شاهدين، ولم يقبل في الزنى إلا أربعة، ثم قال: أيهما أعظم: الصلاة أم الصوم؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة. فكيف؟ **ويحك يقوم لك قياسك؟ اتق اللّه ولا تقس الدين برأيك»**[1].

(١) الأصول العامة للفقه المقارن، السيد محمد تقي الحكيم، ص٣١٤ و٣١٥، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم ـ إيران، ١٤١٨هـ.

خلاصة الكلام

وخلاصة الكلام في هذا البند: أهل البيت عليهم السلام عصمة للناس من الضلالة على المستوى التطبيقي في إطاره الفكري ـ العلمي، ومصداق ذلك هو قيام الأئمة عليهم السلام لعدة إجراءات في تنصب في هذا الإطار؛ وهي:

أ ـ التأكيد على أنهم المتداد الصحيح للنبوة، وذلك من بيان مرجعية القرآن الكريم وأنهم المفسرون الحقيقيون له، وبيان مرجعية السنة النبوية وأنها مكنوزة عندهم، ومخزونة في صدورهم.

ب ـ رعاية وتربية نخبة من المجتمع لتشكيل «المجمتع العلمي» الذي تقع عليه مسؤولية تحمل «المنهج» وتوارثه عبر الأجيال، وذلك تطبيقاً لمفهوم «الرسول المعلّم».

ت- التأكيد على حاجة الناس لهم، وأن الناس مهما سعوا في اجتهادات ومحاولات فإنهم

محتاجون لأهل البيت عليهم السلام، وهذا على مستوى النخبة؛ من الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة والقراء والمحدثين، ناهيك عن مستوى الجماهير وعامّة النّاس.

الخاتمة

انطلق البحث من تصور لفرضيّة حاول امتحانها؛ إثباتاً أو نفياً، وهي أن أهل البيت عليهم السلام عصمة من الضلالة، وأول ما أقدم عليه هو تحليل لمفردتيْ «الضلالة» و«العصمة»، ومن ثمة علاقتهما بأهل البيت عليهم السلام على المستوى النظري والتطبيقي (العملي/ الخارجي)، وانتهى البحث باستخلاص هذه النتائج:

١ ـ لا يمكن دراسة هاتين المفردين في بعدهما اللغوي فحسب، بل هما من المفردات التي ترتبط بأبعاد فكرية ـ فلسفية تحمل معها مفهوماً وإشكالية.

٢ ـ عند دراسة مفردة «الضلالة» لا بد من تناول ثلاثة أبعاد أساسية هي: **المفهوم**؛ وهو أشبه بالبحث الماهوي لمعنى الضلالة. **الحدود**؛ وهو متفرع عن البحث السابق لأننا بتحديد حقيقة الضلالة ترتسم أمامنا

حدودها. **المرجعية**؛ وهو بحث في مضمون الضلالة نفسها، وهو البحث المعني بالإطار الإشكالي لمفهوم الضلالة إذ إنه يطرح السؤال الآتي: من الذي يحدد الضلالة من الهداية؟

٣ ـ أكد البحث: الضلالة على مستوى المفهوم هي: الطريق إلى الشر وفي مقابلها الطريق الخير (الهداية)، وأما حدودها فهي شمولية لمختلف شؤون الحياة، وأن المرجعية في تحديد الضلالة وبالتالي الهداية هو الدين.

٤ ـ عند دراسة مفردة «العصمة» لابد من تناول بعدين أساسيين هما: **المفهوم**؛ وهو بحث في حقيقة العصمة. **الحدود**؛ وهو متفرع عن البحث السابق.

٥ ـ العصمة هي حلقة الوصل بين الله ـ سبحانه ـ باعتباره مصدر الهداية وبين البشر، إذ هي المعيار الذي يضمن سلامة تلقي الهداية الإلهية. وهي عصمة تفصيلية من الدين للبشر على المستوى النظري، وذلك من

خلال التبليغ الإلهي؛ البليغ والواضح، لكنها على المستوى العملي مرتبطة بالإنسان الحر المختار؛ فبقدر استعصامه يعتصم، وبالأمة المختارة؛ فبقدر استعصامها تعتصم.

٦ ـ علاقة أهل البيت عليهم السلام بكل ما سبق لا بد من بحثها ضمن إطارين أو مسويين؛ هما: ثبوتي (نظري)، وإثباتي (تطبيقي/ عملي/ خارجي). أما المستوى الأول: فمقتضى أدلة الإمامة التي أقامتها مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتي تنتهي إلى اتحاد مفهومي النبوة والإمامة في كل شيء عدا بعض خصائص النبوة، يثبتُ المطلوب.

٧ ـ البحث الإثباتي نحا منحاً آخر، إذ إنه اتجه إلى الواقع التطبيقي لممارسات أهل البيت عليهم السلام في الخارج مستقرءًا سيرتهم لتحصيل كيفية أدائهم عليهم السلام لهذه الهداية، وهنا بحث زاويتين ـ والبحث في نفسه يتسع لأكثر منهما ـ وهما: المستوى

الميداني ـ العملي، والمستوى الفكري ـ المعرفي.

٨ ـ على المستوى الميداني ـ العملي: كان لأهل البيت عليهم السلام أدوار متنوعة في الأمة كلٌ بظروف مرحلته لكن ضمن معادلة «الرسول المُزكي/ المُربّي»، فتارة يحملون الأمة على العمل السلمي والإصلاح الداخلي، وآخرى على المواجهة العسكرية، وفي غيرها على العمل بعيداً عن الأنظار أو ضمن الدولة... وهكذا. أي أنهم عليهم السلام كان يتحركون في الأمة ضمن أهداف يسعون لتحقيقها بمراعات ظروفهم المحيطة به، كما الأنبياء عليهم السلام.

٩ ـ على المستوى الفكريّ ـ العِلميّ: قام أهل البيت عليهم السلام بثلاثة أمور أساسية؛ هي: **أولاً**: التأكيد منذ اللحظة الأولى من رحيل النبي صلى الله عليه وآله على أنهم الامتداد العلمي والطبيعي للنبي صلى الله عليه وآله؛ وذلك بأن فَهْمَ

القرآن الحقيقي عندهم لا عند غيرهم، وسنة رسول الله ﷺ مكنوزة عندهم وأنهم إنما يعلمون الناس من السنة لا غير. **وثانياً**: صناعة المجتمع العلمي؛ الذي يحمل علوم أهل البيت عليهم السلام ويتوارثها جيلاً عن جيل لبثها ونشرها بين الناس تجسيداً لمفهوم «الرسول المعلم». **وثالثاً**: التأكيد على افتقار الأمة لهم على كل المستويات العلمية.

١٠ـ من مجموع ما مرّ نستخلص أن أهل البيت عليهم السلام كانوا للأمة عصمةً من الضلالة؛ تشهد بذلك مجموع الأدلة العلمية والواقع التطبيقي. لكن المشكلة الأساسية في وعي الأمة تتمثل في «أزمة الثقة» بالله ـ سبحانه وتعالى ـ لما اختار لهم من منهج وسلوك وطريقة، إذ من المواجهة الأولى «للفتن» تتزعزع الثقة، ويكون الشك هو المرجع الأول، متناسين أن ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ لكن هذا الثواب مذخورٌ ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا﴾ فليس الرسول عليهم ﴿بمسيطر﴾ بل هو ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يسير على نهج ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وإن لم تستجب الأمة ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ و﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

التوصيات

يمكننا تسجيل عدة توصيات بناءً على الدراسة السابقة:

١ ـ ضرورة تأصيل «الجماعة المؤمنة» في المجتمع بأدواتها التي كرسها أهل البيت عليهم السلام في كلا بعديه القيادي والعلمي، بحيث يحافظ على تميزه وخصوصياته.

٢ ـ تطوير المؤسسات الدينية المحتضة للمجتمع العلمي بالشكل الذي يأهلها للتواصل والانفتاح مع الآخرين.

٣ ـ التأكيد عل ثقافة «اليقين»، واعتبارها مرتكز البناء الفكري في عموم المجالات المعرفية، بحيث تعزز في الأمة الثقة بالله ـ سبحانه ـ وبما اختاره لنا من دين ومنهج.

٤ ـ تشكيل مؤسسات علمية متخصصة تستفرغ جهدها لبحث ودراسة موقع أهل البيت

عليهم السلام في الحضارة الإسلامية، والإسهامات العظيمة التي قدموها للأمة بشكل خاص وعموم البشرية بشكل عام.

٥ ـ معالجة المشاكل الفكرية لدى تيار التشكيك (أزمة الثقة) بالشكل الذي يتيح لهم المجال لمراجعة خياراتهم، مما يساهم في تقدُّم مستواهم الفكري والمعرفي، والذي ينصب في نهاية المطاف في خدمة تقدم المجتمع حضارياً، إذ العزم والهمة فرعا اليقين، في حين أن «الشك مرض الروح» كما في الحديث.

ملحق

١ ـ صفات النبي ﷺ في القرآن الكريم.

١ ـ النبي ﷺ شهيد على الأمة.

النحل: ٨٩.

٢ ـ النبي ﷺ نذير.

نذير مبين: الحج: ٤٩/ العنكبوت: ٥/ ص: ٧٠/ الأحقاف: ٩/ الذاريات: ٥٠-٥١/ الملك: ٢٦.

نذير وبشير: الفرقان: ٥٦/ الأحزاب: ٤٥/ الفتح: ٩.

منذر: ص: ٦٥/ ق: ٢/ النازعات: ٤٥/ الرعد: ٧.

٣ ـ النبي ﷺ مبشر.

مبشر ومنذر: الفرقان: ٥٦/ سبأ: ٢٨/ فاطر: ٢٤.

شاهدٌ ومبشرٌ ونذيرٌ وداعيٌ وسراجٌ منيرٌ: الأحزاب: ٤٥-٤٦.

شاهد ومبشر ونذير: الفتح: ٨.

بشير: هود: ٢.

شاهد: المزمل: ١٥.

شهيد: النحل: ٨٩.

٤ ـ **النبي صلى الله عليه وآله داعيٌ إلى الله ـ سبحانه ـ.**

الأحزاب: ٤٦.

٥ ـ **النبي صلى الله عليه وآله سراج منير.**

الأحزاب: ٤٦.

٦ ـ **النبي صلى الله عليه وآله مجعول على شريعة من الأمر.**

الجاثية: ١٨.

٧ ـ **النبي صلى الله عليه وآله كريم.**

الحاقة: ٤٠/ التكوير: ١٩.

٨ ـ **النبي صلى الله عليه وآله ذو قوة.**

التكوير: ٢٠.

٩ ـ **النبي صلى الله عليه وآله مطاع.**

التكوير: ٢١.

١٠- **النبي صلى الله عليه وآله مكين.**

التكوير: ٢٠.

١١- النبي ﷺ أمين.

التكوير: ٢١.

١٢- النبي ﷺ مذكر.

الغاشية: ٢١.

* * *

٢ ـ صفة الأنبياء مجتمعين.

١ ـ مبشرين ومنذرين:

النساء: ١٦٥/ الكهف: ٥٦/ الزمر: ٧١.

* * *

٣ ـ صفة كل نبي على حدة من حيثية الرسالة:

١ ـ النبي نوح عليه السلام: نذير مبين: هود: ٢٥/ الشعراء: ١١٥/ نوح: ٢.

* * *

٤ ـ صفة رسالة كل نبي على حدة.

أ ـ **النبي عيسى عليه السلام:**

١ ـ بينات: الزخرف: ٦٣.

٢ ـ حكمة: الزخرف: ٦٣.

٣ ـ مصدق لما بين يديه من التوراة: الصف: ٦/ المائدة: ٤٦.

٤ ـ هدى: (الإنجيل هدى): آل عمران: ٤/ المائدة: ٤٦.

٥ ـ نور: (الإنجيل نور): المائدة: ٤٦.

ب ـ النبي موسى عليه السلام:

١ ـ آيات: يونس: ٧٥/ إبراهيم: ٥/ المؤمنون: ٤٥.

٢ ـ سلطان مبين: المؤمنون: ٤٥/ الدخان: ١٩/ الذاريات: ٣٨.

٣ ـ بصائر: القصص: ٤٣.

٤ ـ هدى: القصص: ٤٣/ غافر: ٥٣.

٥ ـ رحمة: القصص: ٤٣/ الأحقاف: ١٢.

٦ ـ إمامٌ: الأحقاف: ١٢.

٧ ـ الكتاب المستبين: الصافات: ١١٧.

ت ـ النبي داوود عليه السلام:

١ ـ فصل الخطاب: ص: ٢٠.

٢ ـ الحكمة: ص: ٢٠.

* * *

٥ ـ مهام الأنبياء مجتمعين.

١ ـ إتيان البينات.

آل عمران: ١٨٣/ يونس: ٧٤/ الزمر: ٧١/ التغابن: ٦.

٢ ـ التبشير والإنذار: الأنعام: ٤٨.

٣ ـ الإنذار: الزمر: ٧١.

٤ ـ قص الآيات: الأعراف: ٣٥.

٥ ـ **القضاء بالقسط:** يونس: ٤٧ (محل تأمل).

* * *

٦ ـ مهام النبي صلى الله عليه وسلم:

١ ـ التلاوة:

ـ تلاوة الآيات: البقرة: ١٢٨/ البقرة:

١٥١/ آل عمران: ١٦٤/ الجمعة: ٢.

- تلاوة الوحي: الرعد: ٣٠/.
- تلاوة الكتاب: العنكبوت: ٤٥.
- تلاوة آيات الله مبينات: الطلاق: ١١.
- تلاوة الصحف المطهرة: البينة: ٢-٣.

٢ ـ التعليم:

- تعليم الكتاب: البقرة: ١٢٨/ البقرة: ١٥١/ آل عمران: ١٦٤/ الجمعة: ٢.
- تعليم الحكمة: البقرة: ١٢٨/ البقرة: ١٥١/ آل عمران: ١٦٤/ الجمعة: ٢.
- تعليم ما لم يكونوا يعلمون: البقرة: ١٥١.

٣ ـ تزكية الناس:

- البقرة: ١٢٨/ البقرة: ١٥١/ آل عمران: ١٦٤/ الجمعة: ٢.

٤ ـ البلاغ:

- البلاغ المبين: المائدة: ٩٢/ النحل: ٨٢/ النور: ٥٤/ العنكبوت: ١٨/

التغابن: ١٢.

- البلاغ: المائدة: ٩٩/ الرعد: ٤٠/ الشورى: ٤٨.

٥ ـ **الإنذار**: هود: ٢.

٦ ـ **الإبشار**: هود: ٢.

٧ ـ **الصدع بما أُمر**: الحجر: ٩٤.

٨ ـ **العدل بين الناس**: الشورى: ١٥.

٩ ـ **التذكير**:

- التذكير بالقرآن: ق: ٤٥.

- التذكير: الذاريات: ٥٥.

١٠ـ **تبيين المنزل من الله ـ سبحانه ـ.**

- تبيين المنزل: النحل: ٤٤.

- تبيين ما يخفيه أهل الكتاب: المائدة: ١٤.

١١ـ **قراءة القرآن: الإسراء: ١٠٦.**

* * *

٧ ـ **صفة ما جاء به نبينا ﷺ خاصة.**

١ ـ **الحق:**

- جاء بالحق: النساء: ١٦٩/ الفرقان: ٣٣/ الصافات: ٣٧.
- دين الحق: التوبة: ٣٣/ الفتح: ٢٨/ الصف: ٩.
- حق: محمد ٣.

٢ ـ نور: المائدة: ١٥.

٣ ـ كتاب:

- كتاب مبين: المائدة: ١٥.
- كتاب مصدق لما بين يديه: المائدة: ٤٨/ الأنعام: ٩٢/ فاطر: ٣١/ آل عمران: ٣/ الأحقاف: ١٢.
- كتاب مفصل: الأنعام: ١١٤/ الأعراف: ٥٢.
- كتاب مبارك: الأنعام: ٩٢/ الأنعام: ١٥٥/ ص: ٢٩.
- مهيمن على الكتب الأخرى: المائدة: ٤٨.
- الكتاب تبيان لكل شيء: النحل: ٨٩.

- الكتاب حق: فاطر: ٣١.
- الكتاب منه متشابه: آل عمران: ٢/ الزمر: ٢٣.
- كتاب مثاني: الزمر: ٢٣.
- كتاب فصلت آياته: فصلت: ٣.
- كتاب عزيز: فصلت: ٤١.
- كتاب لا يأتيه الباطل: فصلت ٤٢.
- الكتاب شفاء: ٤٤.
- الكتاب نور: الشورى: ٥٢.
- الكتاب رحمة: الأعراف: ٥٢/ النحل: ٨٩.

٤ ـ هدى:

- هدى إلى سبل السلام وإخراج من الظلمات إلى النور وصراط مستقيم: المائدة: ١٦.
- هدى: الأعراف: ٥٢/ التوبة: ٣٣/ النحل: ٨٩/ آل عمران: ٤/ فصلت: ٤٤/ الجاثية: ٢٠/ الفتح: ٢٨.

٥ ـ **القرآن:**

ـ القرآن إنذار للشاهدين ومن بلغ: الأنعام: ١٩.

ـ القرآن ميسر للذكر: القمر١٧/ ٢٢/ ٣٢/ ٣٩.

ـ القرآن مجيد: البروج: ٢١.

ـ القرآن يهدي إلى الرشد: الجن: ٢.

٦ ـ **رحمة:** الجاثية: ٢٠.

٧ ـ **بشرى للمسلمين:** النحل: ٨٩.

٨ ـ **أحسن التفسير:** الفرقان: ٣٣.

٩ ـ **أحسن الحديث:** الزمر: ٢٣.

١٠ـ أحسن ما أنزل: الزمر: ٥٥.

١١ـ **الرسالة ميسرة بلسان النبي** صلى الله عليه وآله: الدخان: ٥٨.

١٢ـ **الرسالة مُصدِّقة للمرسلين:** الصافات: ٣٧.

١٣ـ **بصائر:** الجاثية: ٢٠.

١٤ـ **الرسالة بلسان عربي:**

- عربي مبين: الشعراء: ١٩٥/ النحل: ١٠٣.
- عربي: فصلت: ٤٤/ يوسف: ٢/ الرعد: ٣٧/ طه: ١١٣/ الزمر: ٢٨/ فصلت: ٣/ الشورى: ٧/ الزخرف: ٣/ الأحقاف: ١٢.

١٥ـ **آيات بينات:** الحديد: ٩.

١٦ـ **قول ثقيل:** المزمل: ٥.

الفهرس

المقدمة ٥
توطئة ٧
تحديد المفاهيم ٩
الضلالة؛ المفهوم، الحدود، المرجعية ١٣
المفهوم ١٣
الحدود ١٦
المرجعية ١٧
منهجان في حدود المرجعية ٢٢
الأساس النظري للمنهج الأول (الخارجي) ٢٥
المقام الأول: أسس البناء ٢٦
مناقشة المقام الأول: أسس البناء ٣٠
المقام الثاني: أسس الهدم ٣٩
مناقشة المقام الثاني: أسس الهدم ٤١
الأساس النظري للمنهج الثاني (الداخلي) ٤٤
العصمة: المفهوم، الحدود ٤٧
المفهوم ٤٧

الحدود ٥١
خلاصة الكلام ٦١
أهل البيت عليهم السلام العصمة من الضلالة: الأساس النظري ٦٣
أهل البيت عليهم السلام العصمة من الضلالة: الواقع التطبيقي ٦٧
خلاصة الكلام ١٠٩
الخاتمة ١١١
التوصيات ١١٧
ملحق ١١٩